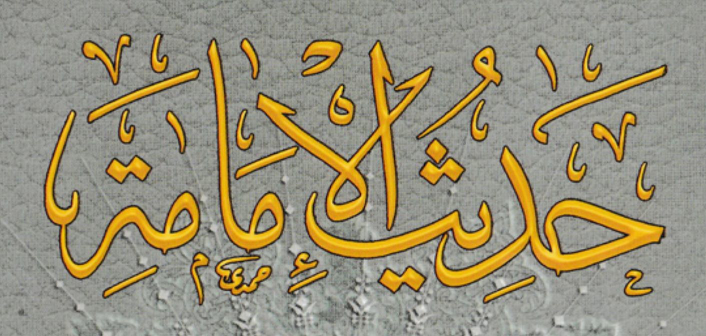


شرح حديث الإمام الرضا عليه السلام المرويّ في
أصول الكافي حول فضل الإمام وصفاته

السيّد جعفر الحسينيّ الشيرازيّ





حديث الإمامة

شرح حديث الإمام الرضا عليه السلام المروي

في أصول الكافي، حول فضل الإمام وصفاته

الطبعة الأولى
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م



المكتب : الرويس - بناية عروس الرويس - تلفاكس : 03/473919 - 01/545182
ص . ب : 140 / 24 - المستودع : بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - هاتف : 01/541650
www.daraloloum.com E-mail:info@daraloloum.com

حديث الإمامة

شرح حديث الإمام الرضا عليه السلام المرويّ في أصول الكافي، حول فضل الإمام وصفاته

السيد جعفر الحسيني الشيرازي




بسم الله الرحمن الرحيم

خلاصة الحديث

جمع هذا الحديث الشريف عيون الأدلة والمطالب حول الإمام والإمامة، ذكرها الإمام الرضا عليه السلام بنحو متناسق، جاعلاً القرآن الكريم المحور وقطب الرحى في الاستدلال.

فبدأ أولاً بإقامة البرهان من القرآن والعقل على أن الإمام لا يكون باختيار الناس، وإنما هو اصطفاء من الله تعالى.

ثم بيان منزلة الإمام وجملة من المطالب الهامة المتعلقة به.

ثم بيّن ضلال من ترك اختيار الله إلى اختياره.

وواصل الحديث عن أن الأئمة الذين عيّنهم الله تعالى هم آل محمد عليهم السلام مجمع الفضائل المبرَّؤون من كل عيب ونقص.

وختم الكلام بأن كل فضائلهم إنما هي بفضل من الله ورحمته، وأنه لا يمكن لأي أحد مهما حاول أن يصل إلى مرتبتهم.

هذا الحديث بشكل مختصر، وقد اكتفيت بتوضيح مراد الإمام عليه السلام، مع فرز المطالب في ستة فصول ومقدمة وخاتمة، وإلّا فالتعمق في مطالب هذا الحديث بحاجة إلى مجلدات.

وهذا الحديث ـ مع قطع النظر عن صحة مضامينه ومطابقته للكتاب والسُّنة والعقل ـ استفاضت روايته في كتب الأصحاب[1].

وينبغي زيادة الاهتمام بهذا الحديث الشريف، ونشره بين الناس ـ مخالفهم وموافقهم ـ ليعمّ نفعه وليهدي الله به من كان قابلاً للهداية.

ولذا رجّحت طبع هذا الحديث ـ بشرحه ـ في كتيب مستقل، مضافاً إلى طبعه في المجلد الثالث من شرح أصول الكافي، ليسهل اقتناؤه ونشره.

أسأل الله القبول والتوفيق والهداية إنه ولي ذلك وهو المستعان.

(١) راجع البحار: ج٢٥، ص١٢٠ ـ ١٢٩ ، عن إكمال الدين: ٣٨٠ ـ ٣٨٣، ومعاني الأخبار: ٣٣ ـ ٣٤، وعيون أخبار الرضا: ١٢٠ ـ ١٢٣، وأمالي الصدوق: ٣٩٩ ـ ٤٠٢، وتحف العقول: ٤٣٦ ـ ٤٤٢، والاحتجاج: ٢٣٧ ـ ٢٤٠، وغيبة النعماني: ١١٦ ـ ١١٩.

أَبُو مُحَمَّدٍ الْقَاسِمُ بْنُ الْعَلَاءِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ رَفَعَهُ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُسْلِمٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ الرِّضَا عليه السلام بِمَرْوَ، فَاجْتَمَعْنَا فِي الْجَامِعِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي بَدْءِ مَقْدَمِنَا، فَأَدَارُوا أَمْرَ الْإِمَامَةِ، وَذَكَرُوا كَثْرَةَ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِيهَا، فَدَخَلْتُ عَلَى سَيِّدِي عليه السلام فَأَعْلَمْتُهُ خَوْضَ النَّاسِ فِيهِ، ....

قال ثقة الإسلام، المحدث الخبير، والثقة الجليل، محمد بن يعقوب الكليني رضوان الله عليه:

(أبو القاسم محمد بن العلاء ـ رحمه الله ـ، رفعه، عن عبد العزيز بن مسلم، قال: كنا مع الرضا عليه السلام بمرو فاجتمعنا في الجامع يوم الجمعة في بدء مقدمنا) مصدر ميمي، أي أول قدومنا، وكأنّ عبد العزيز كان مرافقاً للإمام الرضا عليه السلام في سفره إلى خراسان.

(فأداروا أمر الإمامة، وذكروا كثرة اختلاف الناس فيها، فدخلت على سيدي عليه السلام فأعلمته خوض الناس فيه) أي في أمر الإمامة، و«الخوض» ـ في الأصل ـ المرور في الماء، ثم استُعير في التكلم حول أمرٍ ما.

فَتَبَسَّمَ ﷺ ثُمَّ قَالَ: يَا عَبْدَ الْعَزِيزِ جَهِلَ الْقَوْمُ وَخُدِعُوا عَنْ آرَائِهِمْ.

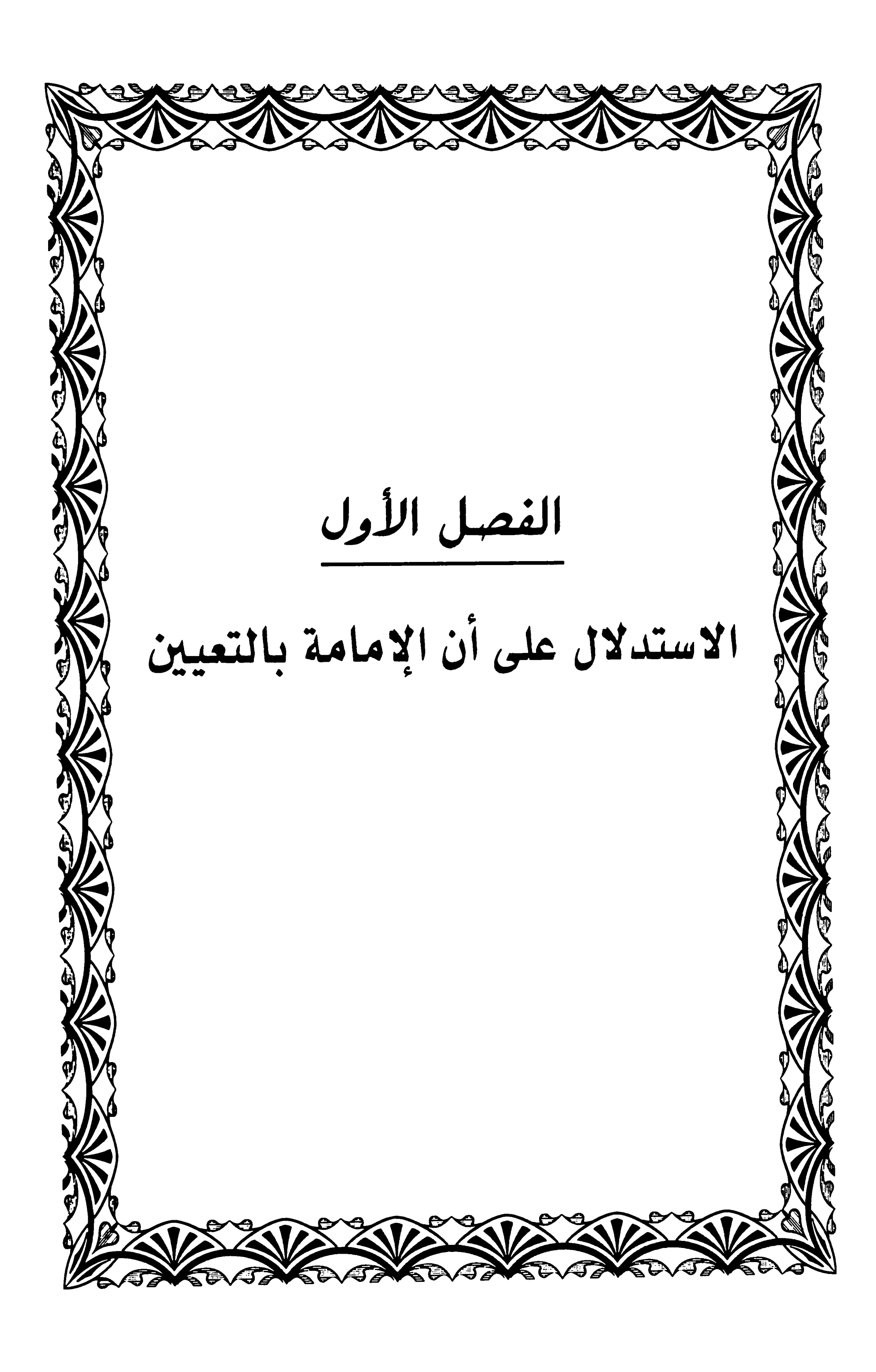
(فتبسم ﷺ) في المرآة[١]: وتبسمه ﷺ للتعجب عن ضلالتهم وغفلتهم عن أوضح الأمور بحسب الكتاب والسُّنة، أو عن استبدادهم بالرأي فيما لا مدخل للعقل فيه.

لأنَّ أصل مسألة الإمامة يدلّ عليها العقل أيضاً ولكن تعيين الأفراد لها يكون بالنص.

(ثم قال: يا عبد العزيز، جهل القوم وخُدعوا عن آرائهم) «عن» بمعنى باء السببيّة، أي خُدعوا بسبب آرائهم، والخادع هو إبليس وأعوانه، «جهل القوم» بالجهل البسيط، «خدعوا» بالجهل المركب، فهؤلاء لم يكونوا يعلمون أولاً، ثم زعموا العلم.

---

(١) مرآة العقول ج٢، ص٣٧٦.



الفصل الأول

الاستدلال على أن الإمامة بالتعيين

ثم إن الإمام عليه السلام استدل بأمرين، على أن الإمامة بتعيين من الله تعالى، وليس للناس فيها اختيار.

الدليل الأول

إن الله تعالى بيّن كل الأمور، ـ صغيرها وكبيرها ـ في القرآن الكريم، وعلى لسان رسوله الأمين صلى الله عليه وآله، ومن المعلوم أن أمر الإمامة من أهم الأمور، فكيف يصحّ القول بأنه تعالى لم يبيّنها؟

وحتى العامة أقرّوا بأهمية موضوع الإمامة، ورووا أن من مات وليس في عنقه بيعة لإمام مات ميتة جاهلية[1]، واعتذروا للصحابة ـ حيث اجتمعوا في السقيفة قبل دفن رسول الله صلى الله عليه وآله ـ بأن تعيين الإمام أهم من تجهيز الرسول!! بل إن بعض متأخريهم ـ لما لم يتمكنوا من دفع الأدلة القوية على لزوم تعيين الإمام ـ لمّحوا بأن الرسول صلى الله عليه وآله أشار إلى أبي بكر لمّا عيّنه ـ بزعمهم ـ للصلاة مكانه في مرضه، وافتروا عليه بأنه قال: (ويأبى الله والمؤمنون إلّا أبا بكر).

---

(١) المحلّى، ابن حزم، ج١، ص٤٥، المسألة ٨٧.

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَقْبِضْ نَبِيَّهُ ﷺ حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ الدِّينَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ فِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، ....

مع وضوح أن الرسول ﷺ أزاح أبا بكر من المحراب، ولذا اضطربت رواياتهم في موضوع هذه الصلاة.

ومع أنه عزله عن تبليغ البراءة ونصب بدله الإمام علياً عليه السلام، إتماماً للحجة، وبأنه لا يؤدي عنه ﷺ إلّا هو أو رجل من أهل بيته(١).

(إن الله عز وجلّ لم يقبض نبيّه ﷺ حتى أكمل له الدين)، لأنه لا تشريع بعد رسول الله ﷺ، ولا يصحّ إبقاء الدين ناقصاً ـ وهو خاتم الأديان ـ، فثبت عقلاً كمال الدين قبل وفاة الرسول ﷺ، مضافاً الى الأدلة النقلية الدالّة على كمال الدين ـ كما ستأتي ـ

(و) عطف تفسيري، لبيان أن كمال الدين ببيان كل شيء في القرآن الكريم، **(أنزل عليه القرآن فيه تبيان كل شيء)** قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾(٢) أي ما يحتاج إليه الإنسان في سبيل الهداية، ومن الواضح أن أكبر الضلال حصل بسبب الاختلاف في أمر الإمامة، فهل يُعقل أن يبيّن الله كل أمور الهداية، ويترك أهم الأمور فيها؟

---

(١) انظر ـ كمثال ـ تفسير الطبري: ج١٠، ص٦٤ في تفسير آية ١ من التوبة.

(٢) سورة النحل: الآية ٨٩

بَيَّنَ فِيهِ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ وَالْحُدُودَ ....

سؤال: تقولون بأن الله عيّن الإمام، فلماذا لم يرتفع هذا الاختلاف؟

والجواب: أن ذلك بسبب تقصير الناس، وخذلانهم للإمام، وليس بسبب عدم البيان من الله تعالى.

كما أن الله أرسل الرسل لهداية الناس، ومع ذلك بقي أكثر الناس على ضلالهم، فعدم هدايتهم بسبب أنفسهم، وإلّا فإن الحجة تامة، كما قال تعالى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾(١).

و(**بيَّن فيه الحلال والحرام**) قوله «بيّن فيه. . . .» تفسير لقوله تعالى: ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾، و«الحلال» ما يجوز فعله، و«الحرام» ما لا يجوز فعله، قال تعالى ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾(٢).

وبيَّن (**الحدود**) أي ما لا يجوز تعديه إلى غيره، قال تعالى ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾(٣).

وحدود الله على أقسام، منها:

١ ـ ما لا يجوز الزيادة ولا النقيصة فيه، كأعداد ركعات الصلاة.

٢ ـ ما لا يجوز النقصان وتجوز الزيادة، كالزكاة.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٥٦.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٩.

وَالْأَحْكَامَ، وَجَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ كَمَلًا، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾، وَأَنْزَلَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ - وَهِيَ آخِرُ عُمُرِهِ ﷺ - ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، ....

---

٣ ـ ما لا تجوز الزيادة ويجوز الأقل، كالزواج بأربع[1].

وبيَّن **(الأحكام)** وهي التكاليف، من الوجوب والحرمة والاستحباب والكراهة والإباحة.

ولا يخفى أن بين الحلال والحرام، وبين الحدود، وبين الأحكام، عموماً من وجه.

(و) بيّن **(جميع ما يحتاج إليه الناس كملاً)** أي كلّه، **(فقال عز وجلّ** ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾**)**[2] أي قد ذكرنا في القرآن كل شيء يحتاج الانسان إليه في معرفة أمور دينه.

(وأنزل في حجة الوداع - وهي آخر عمره ﷺ - ﴿ٱلْيَوْمَ﴾) أي يوم الغدير (﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾) بنصب علي عليه السلام خليفة من بعد الرسول ﷺ، (﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾) فإن نعمة الاسلام دون نعمة الإيمان بالولاية ناقصة، (﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾)[3] فإن الإسلام ذو

---

(١) عن المفردات للراغب ص ٢٢١ . بتصرف .

(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٨.

(٣) سورة المائدة: الآية ٣.

وَأَمْرُ الْإِمَامَةِ مِنْ تَمَامِ الدِّينِ، وَلَمْ يَمْضِ ﷺ حَتَّى بَيَّنَ لِأُمَّتِهِ مَعَالِمَ دِينِهِمْ،

درجات، واليوم رقيتم الدرجة القصوى، فرضي الله عن المسلمين بالحال التي وصلوا إليها، والرضا: هنا ليس في مقابل السخط، بل في مقابل النقص الأثري، كما أن من يريد بناء دار إذا بلغ منتصفها يقول: لم أرض بعد، أي لم يكمل رضاي، وإنما يقول: رضيت الآن، إذا تمّ بناء الدار[١].

وقد تواترت الروايات من الخاصة والعامة على أن الآية نزلت في يوم الغدير[٢].

(**وأمر الإمامة من تمام الدين**) أي انتهاء الدين إلى حدّ لا يحتاج معه إلى شيء آخر، ويقابل التمام: النقصان، أي الاحتياج إلى تكميل، ومن المعلوم استحالة نقصان الدين، لأنه نقض للغرض، والدين لا يحتاج الى الأخذ من غيره، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[٣].

(و) كما بيّن الله تعالى، كذلك (**لم يمض**) الرسول ﷺ (**حتى بيّن لأمّته معالم دينهم**) بينّه الرسول ﷺ امتثالاً لقوله تعالى ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ

---

(١) عن تقريب القرآن ج١، ص٦٠٣،
(٢) مثلاً انظر الدرّ المنثور: ج٢، ص٢٩٣، ط مصر.
(٣) سورة الفتح: الآية ٢٨.

وَأَوْضَحَ لَهُمْ سَبِيلَهُمْ، وَتَرَكَهُمْ عَلَى قَصْدِ سَبِيلِ الْحَقِّ وَأَقَامَ لَهُمْ عَلِيّاً عليه السلام عَلَماً وَإِمَاماً، ....

﴿ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1]، وقال: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾[2].

و«المعالم» جمع مَعْلَم، وهو: الأثر الذي يُعلم به الشيء، كبيان الحلال والحرام والآداب والوصية... الخ.

(**وأوضح لهم سبيلهم**) و«السبيل» الطريق، والمراد هنا طريق الحق، كقوله ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾[3].

(**وتركهم على قصد سبيل الحق**) و«القصد»: استقامة الطريق، قال تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾[4] أي على الله بيان الطريق المستقيمة.

(**وأقام لهم علياً عليه السلام علماً وإماماً**) «العَلَم» علامة الشيء والذي يدلّ عليه، كعَلَم الجيش، وعلائم الطريق ونحوهما، فالإمام علي عليه السلام هو علامة لطريق الحق، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «علي مع الحق والحق مع علي»[5] فصار عليه السلام علامة الحق في كل أمر من أموره.

---

(١) سورة النحل: الآية ٤٤.
(٢) سورة النحل: الآية ٦٤.
(٣) سورة إبراهيم: الآية ١٢.
(٤) سورة النحل: الآية ٩.
(٥) المسائل الصاغانية: ص١٠٩.

وَمَا تَرَكَ لَهُمْ شَيْئاً يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ إِلَّا بَيَّنَهُ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُكْمِلْ دِينَهُ فَقَدْ رَدَّ كِتَابَ اللَّهِ وَمَنْ رَدَّ كِتَابَ اللَّهِ فَهُوَ كَافِرٌ بِهِ.

(وما ترك لهم شيئاً يحتاج إليه الأمة إلا بيّنه، فمن زعم أن الله عز وجل لم يكمل دينه فقد ردّ كتاب الله، ومن ردّ كتاب الله فهو كافر به) هذا كالنتيجة، فإنه قد استدل الإمام عليه السلام: بأنّ الدين كامل، ومن أهم أمور الدين خلافة الرسول صلى الله عليه وآله، ولولا بيانها كان الدين ناقصاً، ولا يمكن لمسلم أن يقول بنقصان الدين، وإلّا كان كافراً، لأنه ردّ القرآن حيث يقول ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

الدليل الثاني

الدليل الثاني على أن الإمامة بتعيين من الله تعالى لا باختيار من الناس: هو أن الإمام يلزم أن يتحلّى بصفات ـ كالعصمة ـ، ولا طريق لمعرفة تلك الصفات إلا اختيار الله تعالى وتعيينه، فأحياناً كثيرة يختلط الأمر على عامة الناس، فلا يتمكنون من التمييز بين من توجد فيه تلك الصفات وبين من لا توجد.

كما أنه لا يمكن لأحد أن يصل بجهده إلى تلك الصفات مهما حاول، لأنها اصطفاء منه تعالى.

وإن موسى عليه السلام ـ مع أنه نبيّ ـ اختار من قومه سبعين رجلاً، ثم تبيّن أنهم منافقون استحقوا الهلاك بعذاب الله تعالى، فكيف يُؤمَن على اختيار الناس ـ وهم ليسوا بأنبياء وقد ينخدعون بالظاهر ولا علم لهم بالبواطن ـ.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[١] وقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[٢].

---

(١) سورة القصص: الآية ٦٨.

(٢) سورة فاطر: الآية ٣٢.

هَلْ يَعْرِفُونَ قَدْرَ الْإِمَامَةِ وَمَحَلَّهَا مِنَ الْأُمَّةِ فَيَجُوزَ فِيهَا اخْتِيَارُهُمْ، إِنَّ الْإِمَامَةَ أَجَلُّ قَدْراً، وَأَعْظَمُ شَأْناً، وَأَعْلَى مَكَاناً، وَأَمْنَعُ جَانِباً، وَأَبْعَدُ غَوْراً، مِنْ أَنْ يَبْلُغَهَا النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ، أَوْ يَنَالُوهَا بِآرَائِهِمْ، أَوْ يُقِيمُوا إِمَاماً بِاخْتِيَارِهِمْ،

(**هل**) للاستفهام الإنكاري، (**يعرفون قدر الإمامة**) أي شأنها وما يليق بها، (**ومحلها**) أي منزلتها، (**من الأمة فيجوز فيها اختيارهم**) والمعنى هؤلاء لا يعرفون قدر الإمامة فلذا يزعمون أنها باختيارهم، مع أنها عهد الله، وعهده تعالى إليه، لا إلى غيره، كما يشترط فيها شروط ـ كالعصمة ـ لا يعلمها إلا الله تعالى.

(**إن الإمامة أجلّ قدراً**) و«الجلال» التناهي في العَظَمة، (**وأعظم شأناً**) «الشأن»: الحال، ويُراد به الأمر بالعظيم، (**وأعلى مكاناً**) «المكان» ـ هنا ـ: المنزلة، (**وأمنع جانباً**) أي الطريق الموصل الى الإمامة أبعد من أن يصل إليها أحد، (**وأبعد غوراً**) «الغور» العمق، (**من أن يبلغها الناس بعقولهم أو ينالوها بآرائهم**).

والحاصل أن الإمامة لا يمكن الوصول اليها من أية جهة من الجهات، لا في الارتفاع، ولا في العمق، ولا عن الأطراف، فهي مرتفعة بحيث لا تنالها الأيدي، وهي بعيدة بحيث لا يمكن السير إليها، وهي عميقة بحيث لا يمكن الغوص إليها.

(**أو يقيموا إماماً باختيارهم**)

إِنَّ الْإِمَامَةَ خَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عليه السلام بَعْدَ النُّبُوَّةِ وَالْخُلَّةِ مَرْتَبَةً ثَالِثَةً، ....

فهنا مراحل ثلاث:

١ ـ أن يصبح الإنسان إماماً، وأشار إليه بقوله: «يبلغها الناس بعقولهم»، لزعمهم أنّ قوة العقل في إنسان يجعله صالحاً للإمامة.

٢ ـ أن يعرفوا منزلة الإمامة، وأشار إليه بقوله: «أو ينالوها بآرائهم»، لزعمهم أنهم يتمكنون من معرفتها بسبب القواعد التي وضعوها من عند أنفسهم.

٣ ـ أن يختاروا الإمام بانتخابهم، كما قال: «أو يقيموا إماماً...».

(**إن الإمامة خصّ الله عزّ وجلّ بها إبراهيم الخليل بعد النبوة، والخُلة، مرتبة ثالثة**) قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

إن إبراهيم عليه السلام كان يائساً عن الذرية إلى أن بلغ من الكبر عتياً، كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾[2]، وأما نبوته فكانت في أوائل عمره الشريف، حيث دعا أباه ـ أي عمّه آذر ـ إلى الإيمان، وأمّا طلبه الإمامة لذريته فإنّه كان في وقت يعلم بأن له ذرية، أي في

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٢) سورة الحجر: الآيتان ٥٤ ـ ٥٥.

وَفَضيلَةً شَرَّفَهُ بِهَا، وَأَشَادَ بِهَا ذِكْرَهُ فَقَالَ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:١٢٤] **فَقَالَ الْخَليلُ ﷺ سُرُوراً بِهَا: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؟ ....**

كبره، وهذا يدلّ على أن الإمامة أعظم من النبوّة، بحيث استحقها إبراهيم ﷺ بعد نبوّته وبعد أن نجح في الابتلاء.

مضافاً إلى أن قوله: ﴿ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ دليل على أن إمامته كانت بعد اجتيازه لكل الامتحانات، والتي من أعظمها أمره بذبح ولده.

والحاصل أن المرتبة الاولى: كانت النبوة، ـ وكانت في شبابه ـ، والمرتبة الثانية: الخُلّة كما قال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾[١]، والثالثة: كانت الإمامة.

(وفضيلة) عطف على مرتبة **(شرّفه بها وأشاد)** أي رفع **(بها ذكره فقال** ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ **فقال الخليل ﷺ سروراً بها)** «السرور»: ما ينكتم من الفَرَح[٢]، لأن المؤمن يفرح بنعم الله تعالى كما قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[٣].

(﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾)؟ لأن الانسان بطبعه يريد الخير لنسله، ـ لأنهم

---

(١) سورة النساء: الآية ١٢٥.

(٢) مفردات الراغب ص ٤٠٤.

(٣) سورة يونس: الآية ٥٨.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] فَأَبْطَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ إِمَامَةَ كُلِّ ظَالِمٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،

الامتداد له، كما يجرّون إليه النفع في الدنيا والآخرة، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[1]، ولعلّ في هذا نوع تحفيز لتحسين تربيتهم.

والحاصل أن إبراهيم عليه السلام لما حباه الله بالإمامة، وقد كان يعلم بأن الحجّة مستمرة إلى يوم القيامة، رغب في أن تكون تلك الإمامة في ذريته.

(**قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة**) حيث قال تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي﴾، وهذا إخبار منه تعالى بأن الإمامة عهد منه تعالى لا من الناس، وبأنها لا تصل إلى الظالمين.

وكل من يرتكب ذنباً فهو ظالم لنفسه، فلا يصلح للإمامة، والناس لا يعرفون بواطن الأشخاص، فلعلّ مَن هو ظاهر الصلاح لا يتورّع عن المعاصي في حقيقته، فكيف يعلم الناس بعدم ظلمه؟

كما دلّت الآية على عصمة الإمام من الذنوب بحيث لا يرتكب أي ذنب أصلاً وإلّا كان ظالماً في لحظة ارتكابه فلا يكون صالحاً لها.

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٤.

وَصَارَتْ فِي الصَّفْوَةِ، ثُمَّ أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ جَعَلَهَا فِي ذُرِّيَّتِه، أَهْلِ الصَّفْوَةِ وَالطَّهَارَة فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً

(**وصارت في الصفوة**) لأن من لا يُحتمل الذنب في حقه أصلاً، لا يكون إلّا مختاراً من قبل الله تعالى، ولا يكون إلا من ورثة علم الكتاب، كما قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[1].

(**ثمّ أكرمه**) أي ابراهيم (**اللَّهُ، تعالى بأن جعلها**) جعل الله الإمامة (**في ذريته**) لأن قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كان بيان للقاعدة العامة في الإمامة، ولم يكن وعداً لإبراهيم عليه السلام في جعلها في ذريته.

أو معنى «ثم أكرمه الله . . .» هو أن الله وفى بوعده بجعلها في ذريته، بناء على استفادة الوعد من قوله ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهذه الذرّية هم (**أهل الصفوة والطهارة**) «الأهل» ـ هنا ـ بمعنى الخليق والجدير، أي هؤلاء كانوا جديرين بالاصطفاء، أما أنهم أهل الصفوة فلقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]، ونتيجة الاصطفاء هي الطهارة من كل دنس ـ معنوي ومادي ـ، لعدم تناسب الدنس مع اختياره تعالى.

(**فقال: ﴿وَوَهَبْنَا﴾**) عطيةً (**﴿لَهُۥٓ﴾**) لإبراهيم (**﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾**) أي تفضّلاً زائداً، إذ «النافلة» بمعنى الزيادة،

---

(١) سورة فاطر: الآية ٣٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٣.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾، ....

فإن دعاء إبراهيم كان للولد ولم يكن للحفيد، فكان يعقوب لطفاً زائداً، (﴿وَكُلًّا﴾) من إبراهيم وإسحاق ويعقوب (﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾) صلاحاً خاصاً بحيث كانت لهم القابلية للنبوة والإمامة وسائر الفضائل، (﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾) إبراهيم وابنه وحفيده (﴿أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾) إلى الحق، (﴿بِأَمْرِنَا﴾) حسب مشيئتنا لا بتعيين من الناس، (﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾) أي: أن افعلوا الخيرات، (﴿وَإِقَامَ﴾) إقامة (﴿الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ﴾) إعطاء (﴿الزَّكَاةِ﴾)، والصلاة والزكاة من الخيرات، وإنما ذُكرا بالخصوص لأهميتهما، هذه في الجانب العملي، (﴿و﴾) أما في جانب العقيدة فقد (﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾)[1].

ولا يخفى أن الصلاح المُراد في هذه الآية هي درجة عالية جداً بحيث رغب فيها يوسف عليه السلام بعد نبوّته حيث قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[2].

وفي التقريب: ولم يذكر إسماعيل عليه السلام، لعلّه لكونه على

---

(١) سورة الأنبياء: الآيتان ٧٢ ـ ٧٣.
(٢) سورة يوسف: الآية ١٠١.

فَلَمْ تَزَلْ فِي ذُرِّيَّتِهِ، يَرِثُهَا بَعْضٌ عَنْ بَعْضٍ، قَرْناً فَقَرْناً، حَتَّى وَرَّثَهَا اللَّهُ تَعَالَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ جَلَّ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، ....

مجرى الطبيعة، إذ سارة كانت كبيرة وعقيمة، أما هاجر فلم تكن كذلك، وإنما هي شابة ولودة(١).

(**فلم تزل**) الإمامة (**في ذريته يرثها بعض عن بعض**) إرثاً معنوياً، بأمر من الله واصطفائه، كما قال: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾(٢)، وإنما عبّر بالإرث، لأن الإمامة كانت في أسرة واحدة ـ هي آل إبراهيم ـ ولم تخرج منهم، فشُبّهت بما يُتوارث.

(**قرناً فقرن**) في هذا دلالة على استمرار الإمامة من إبراهيم عليه السلام إلى آل محمد ﷺ، و«القرن»: الجماعة المقترنون في زمان واحد.

(**حتى ورثها**) أي الإمامة (**اللَّهُ تعالى النبيَّ ﷺ، فقال جلّ وتعالى**: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾). لعلَّ وجه الاستدلال بالآية أن إبراهيم عليه السلام كانت له جوانب متعددة، ومنها الإمامة، وهذه الإمامة وصلت إلى

---

(١) تقريب القرآن ج٣، ص٥٥٧.

(٢) سورة النساء: الآية ٥٤.

فَكَانَتْ لَهُ خَاصَّةً فَقَلَّدَهَا ﷺ عَلِيّاً عليه السلام، بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، عَلَى رَسْمِ مَا فَرَضَ اللَّهُ، ....

الرسول ﷺ، ومن بعده للإمام علي عليه السلام، للاتفاق على عدم إمامة غيره، فالنبي ﷺ والأئمة عليهم السلام أولى بإبراهيم عليه السلام من كل الجهات ـ ومنها الإمامة ـ، أما سائر المؤمنين فهم أولى بإبراهيم عليه السلام من بعض الجهات، وفي مجمع البيان: نعم سائر المؤمنين يتوّلون نصرة إبراهيم عليه السلام بالحجّة لما كان عليه من الحق، وتبرئة كل عيب عنه، أي هم الذين ينبغي أن يقولوا إنّا على دين إبراهيم ولهم ولايته[1].

وفي الوافي: ﴿أَوْلَى النَّاسِ﴾ أخصّهم به وأقربهم ـ من الولي وهو القرب ـ ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ في زمانه وبعده، ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ خصوصاً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ من أمته[2].

(**فكانت**) الإمامة، (**له**) للرسول ﷺ، (**خاصة**) في زمانه لا يشاركه فيها أحد، (**فقلّدها**) أي ألزمها (**علياً** عليه السلام)، والتقليد في الأصل بمعنى جعل الشيء طوقاً على العنق، كالقلادة.

(**بأمر من الله تعالى، على رسم ما فرض الله**) «الرسم» الطريقة، والمعنى:

إما أنّ الرسول ﷺ نفّذ أمر الله تعالى وجعل الإمامة في

---

(١) مجمع البيان ج٢، ص ٤٧٦.

(٢) الوافي ج٣، ص ٤٨٦.

فَصَارَتْ فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَصْفِيَاءِ الَّذِينَ آتَاهُمُ اللَّهُ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ....

علي عليه السلام بنفس الطريقة التي أرادها سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[١].

وإما بمعنى: على الطريقة التي فرضها الله تعالى في السابقين بأن ينصّب كل إمام إماماً من بعده، لئلَّا يخلو زمان من حجة ـ كما في المرآة ـ[٢].

(فصارت) تلك الإمامة بعد الإمام علي عليه السلام، **(في ذريّته الأصفياء)** أي لأنهم الذين اصطفاهم الله تعالى، **(الذين آتاهم الله العلم والإيمان)**.

وفي هذا الكلام دليلان على اختصاصهم بالإمامة:

١ ـ اصطفاء الله تعالى لهم، كما دلّت عليه آية التطهير، ولم يَدَّعِ أحد من المخالفين اصطفاء خلفائهم.

٢ ـ أنهم أوتوا العلم والإيمان، باعتراف الجميع بأن علياً عليه السلام كان الأقضى والأعلم، وكذا الأئمة من بعده.

(بقوله تعالى) تفسير للآية بالمصداق الأكمل، فإن الائمة عليهم السلام أفضل مَن أوتوا العلم والإيمان ـ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ـ.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(٢) مرآة العقول ج٢، ص٣٨١.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥]، فَهِيَ فِي وُلْدِ عَلِيٍّ عليه السلام خَاصَّةً إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، إِذْ لَا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله ....

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يحلف الذين أجرموا بالشرك والعصيان ﴿مَا لَبِثُواْ﴾ في الدنيا وفي القبر ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ وهي الوقت القليل من الزمان، إنما قالوا ذلك استقلالاً لمدة لبثهم في الدنيا أو في القبر مقابل الخلود في نار جهنم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا الصرف من الصدق إلى الكذب ﴿كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ أي يصرفون عن الحق إلى الباطل.

(﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾) مدة طويلة (﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾) أي فيما قدّره الله لكم من اللبث في الدنيا وفي القبر (﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾)، وليس لبثكم ساعة، (﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾) الذي كنتم تكذبون به (﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]) أي تنكرونه.

(فهي) الإمامة (**في وُلد علي** عليه السلام **خاصة إلى يوم القيامة، إذ لا نبي بعد محمد** صلى الله عليه وآله) أي لم يُبعث نبي بعد محمد صلى الله عليه وآله ليكون إماماً، فلا بدّ أن يكون الأئمة غير أنبياء، وهذا متحقّق في آل محمد صلى الله عليه وآله.

---

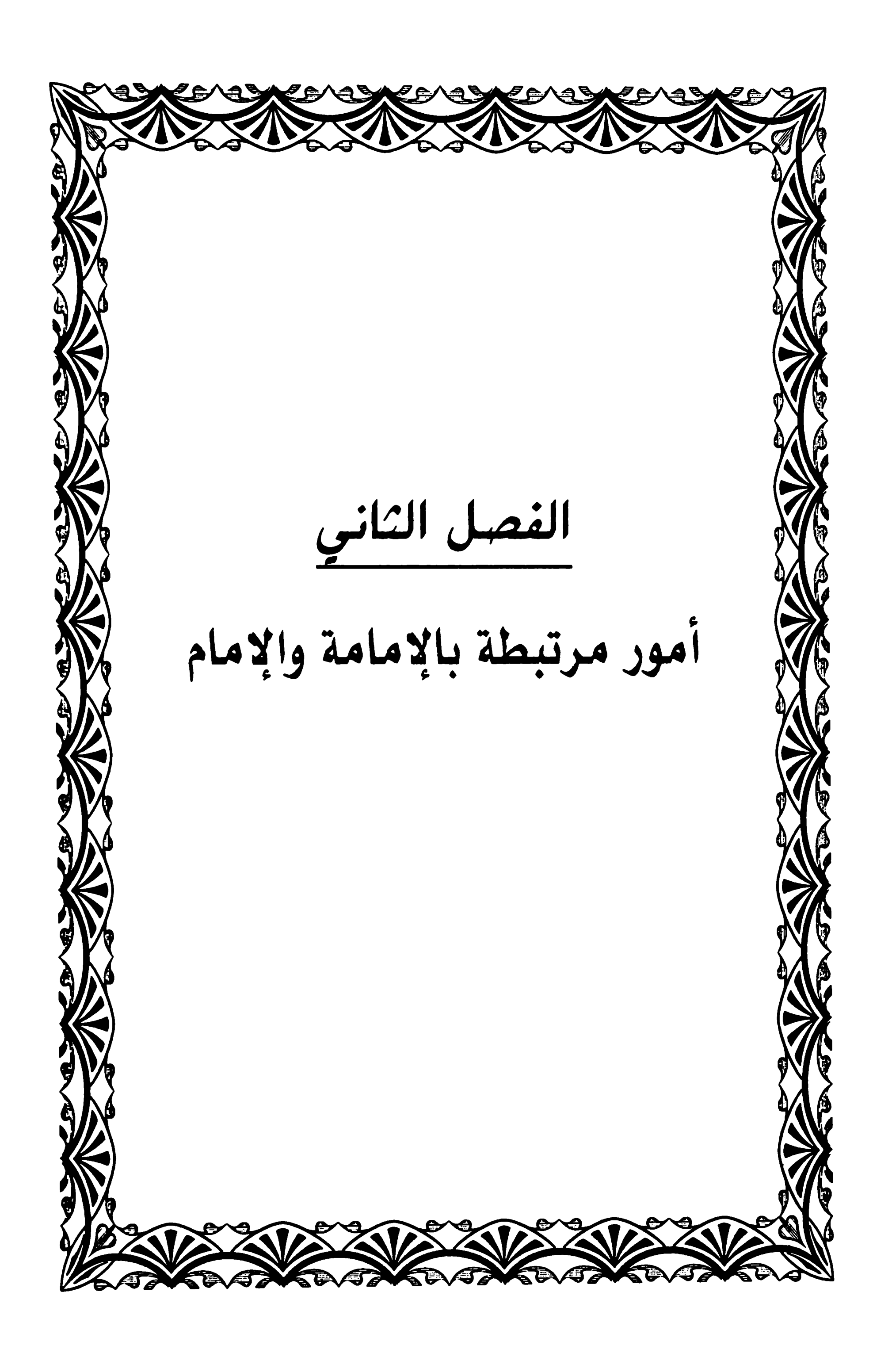
(١) سورة الروم، الآيتان: ٥٥ ـ ٥٦.

فَمِنْ أَيْنَ يَخْتَارُ هَؤُلَاءِ الْجُهَّال.

أو المقصود دفع توهّم، وهو أن الأنبياء أولى بالإمامة، فيكون الجواب: إنه لا نبيّ بعد محمد ﷺ، فلا بدّ من أن يكون الأئمة غير أنبياء.

ويحتمل أن يكون معنى «خاصّة» هو أن المنصب الذي في ولد علي عليه السلام هو الإمامة خاصّة دون النبوّة إذ لا نبي بعد محمد ﷺ.

(**فمن أين يختار هؤلاء الجهّال**) الذين رفضوا إمامة آل محمد ﷺ.



الفصل الثاني

أمور مرتبطة بالإمامة والإمام

ثم إن الإمام الرضا عليه السلام ـ بعد الاستدلال على أن تعيين الإمام من الله تعالى، وأنّها ليست باختيار هؤلاء الجهّال ـ بيّن جملة من الأمور ترتبط بالإمامة كمنصب إلهي، وبالإمام كشخص اختاره الله، كما بيّن نسبة الإمام إلى الله وإلى الناس، نذكرها في ضمن اثني عشر مطلباً، وهي كالتالي:

١ ـ منزلة الإمامة، ٢ ـ فائدة الإمامة، ٣ ـ محل الإمامة من الدين، ٤ ـ دور الإمام، ٥ ـ تشبيه الإمام بالنور، ٦ ـ النجاة في اتّباع الإمام، ٧ ـ عموم خير الإمام، ٨ ـ نسبة الإمام إلى الناس، ٩ ـ نسبة الإمام إلى الله تعالى، ١٠ ـ صفات الإمام، ١١ ـ فضل الإمام على الناس، ١٢ ـ عدم معرفة كُنه الإمام.

[أولاً: منزلة الإمامة]

إِنَّ الْإِمَامَةَ هِيَ مَنْزِلَةُ الْأَنْبِيَاء، وَإِرْثُ الْأَوْصِيَاءِ، إِنَّ الْإِمَامَةَ خِلَافَةُ اللَّهِ ....

(**إن الإمامة هي منزلة الأنبياء**) أي مقام للأنبياء، ومرتبة لهم، ثم من بعدهم ورثها أوصياءهم، وما كان خاصاً بالأنبياء وأوصيائهم لا يكون لغيرهم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[1].

(**وإرث الأوصياء**) «الإرث» ـ هنا ـ بمعنى الموروث، وفي المفردات «يُقال لكلّ مَن حصل له شيء من غير تعب: قد ورث كذا، ويُقال لمن خُوّل شيئاً مُهنّأً: أورث»[2].

قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[3].

(**إن الإمامة خلافة الله**) أي يؤدّي الإمام ما أراده الله تعالى في كل شيء.

---

(١) سورة الانبياء: الآية ٧٣.

(٢) مفردات الراغب ص٨٦٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

وَخِلَافَةُ الرَّسُولِ ﷺ وَمَقَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَمِيرَاثُ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهما السلام.

[ثانياً: فائدة الإمامة]

إِنَّ الْإِمَامَةَ زِمَامُ الدِّينِ، ....

قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2]. وفي المرآة: خليفة الرجل: من يقوم مقامه، فلا بدّ أن يكون عالماً بما أراد المستخلِف، عاملاً بجميع أوامره، مناسباً له في الجملة[3].

(و) الإمامة (**خلافة الرسول ﷺ، ومقام أمير المؤمنين عليه السلام وميراث الحسن والحسين عليهما السلام**).

جمع الإمام الرضا عليه السلام في هذا المطلب، الفائدة الأخروية والدنيوية للإمامة.

١ ـ (**إن الإمامة زمام الدين**)، تمنع الانحراف فيه ـ وهذا يرتبط بالآخرة ـ. و«الزمام» المِقْوَد واللجام، ومعناه في الأصل: الحبل الذي يوضع في المقود لضبط حركة الدّابة، والمقصود من هذا التشبيه هو أن الإمامة سبب لضبط أمور الدين، ومانع عن الانحراف فيه.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) سورة ص: الآية ٢٦.

(٣) مرآة العقول ج٢، ص٣٨٣.

وَنِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَصَلَاحُ الدُّنْيَا، وَعِزُّ الْمُؤْمِنِينَ.

[ثالثاً: محل الإمامة من الدّين]

إِنَّ الْإِمَامَةَ أُسُّ الْإِسْلَامِ النَّامِي، ....

---

٢ ـ **(ونظام المسلمين)**، تمنع انفراط أُمورهم، فكل مسلم ـ حتى وإن كان منافقاً ـ يعيش في حياة كريمة منتظمة.

٣ ـ **(و)** هي **(صلاح الدنيا)**، لأن الإمام أفضل قائد يعمل طبقاً لما هو الصلاح.

٤ ـ **(وعزّ المؤمنين)**، لأنها توجب غلبتهم على غيرهم، ولشعورهم النفسي برعاية الله تعالى لهم، كما أنهم باعتقادهم بها والتزامهم بأوامر الإمام يدخلون الجنّة ـ وهي العزّة الكاملة التامّة ـ.

بيَّن الإمام الرضا عليه السلام أن الإمامة هي من أصول الدين، وفروعه، وأنها شرط قبول العبادات، وأنها سبب ضبط الأمور المالية، وبها تجري الحدود كاملة، ويتمّ بها الدفاع عن الدِّين.

(إن الإمامة أُسّ الإسلام النامي)، «الأس» القاعدة التي يُبنى عليها الشيء، و«النامي» صفة لـ «أُسّ»، كجذور الأشجار، حيث إنّ نموّ الجذور يتسبّب في صلابة الشجر وزيادة ثمره، كذلك الأساس النامي للإسلام هو الإمامة، حيث يبيّن الإمام معالم الإسلام بشكل

وَفَرْعُهُ السَّامِي.

[رابعاً: دور الإمام]

بِالْإِمَامِ تَمَامُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَالْجِهَادِ،

صحيح ويدفع الشبهات عنه، ويطبّقه بشكل كامل ممّا يُوجب انشداد عموم الناس إليه وانتشاره.

مضافاً إلى أن الإمامة من أصول الدين، لا يُقبل الدّين إلّا بها.

(وفرعه السامي) لعلّ المُراد أن النظام الأكمل لا يكون إلّا بإمام، فتطبيق الإسلام، وغلبته على سائر النُّظُم لا يكون إلّا بإمام من الله، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[1].

١ ـ (بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد) لعلّ هذا المقطع شرح لقوله: «وفرعه السامي»، فصحّة هذه العبادات بالاعتقاد بالإمام، ومَن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية ـ كما عن رسول الله ﷺ[2].

كما أن بيان هذه العبادات بشكل صحيح هو عن طريق الإمام، وقد انحرف الذين لا يأخذون من الأئمة في عباداتهم أيّما انحراف،

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٣.

(٢) كمال الدين وإتمام النعمة: باب ٣٨، ص٤٠٩.

وَتَوْفِيرُ الْفَيْءِ وَالصَّدَقَاتِ، وَإِمْضَاءُ الْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ، وَمَنْعُ الثُّغُورِ وَالْأَطْرَافِ. ....

وقد قال أحد الصحابة: ـ وهو أنس بن مالك ـ (لا أعرف شيئاً مما أدركت إلَّا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضُيِّعت)(١).

٢ ـ (**وتوفير الفيء**) «الفيء»: الغنيمة، وفي المرآة: لأنها كانت في الأصل للمسلمين، لأن [الله] خلقها لهم وغصبها الكفار ففاءت ـ ورجعت ـ إليهم(٢).

و«التوفير» القسمة على قانون الشرع، عكس حكام الجور حيث يقسمون الاموال باستئثار، وقد عمّ الفساد المالي كل حكام الجور.

(و) توفير (**الصدقات**) تُطلق على الزكاة، وعلى عامة المال الذي يُتبرّع به، لأن صاحبها يتحرّى الصدق في فعله.

٣ ـ (**وإمضاء الحدود والأحكام**) أي إجراؤها وإنفاذها، و«الحدود» هنا بمعنى العقوبات الشرعية، و«الأحكام» القرارات الحكومية ـ التي هي قضايا إدارية ـ.

٤ ـ (**ومنع الثغور والأطراف**) أي الحدود بين بلاد الإسلام والكفر، ولعلَّ الفرق هو أنّ «الثغر» هي نقاط الضعف التي يقوى احتمال الهجوم منها، و«الأطراف» أعمّ بحيث تشكّل كلّ الحدود.

---

(١) رواه من العامة: البخاري ـ في الصحيح عندهم ـ باب تضييع الصلاة عن وقتها، ج٢، ص٤٠١، الحديث ٥٣٠.

(٢) مرآة العقول ج٢، ص ٣٨٣.

الْإِمَامُ يُحِلُّ حَلَالَ اللَّهِ، وَيُحَرِّمُ حَرَامَ اللَّهِ، وَيُقِيمُ حُدُودَ اللَّهِ، وَيَذُبُّ عَنْ دِينِ اللَّهِ، وَيَدْعُو إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ....

---

٥ ـ **(الإمام يحلّ حلال الله، ويحرّم حرام الله)** أي يبيّن ما هو الحلال وما هو الحرام، كما أنه يطبّق هذه الأحكام عملاً.

٦ـ **(ويقيم حدود الله)** الفرق بين هذا المقطع وبين قوله «وإمضاء الحدود. . . »، أنّ ذاك: في جانب القرار، أي الإمام يُصدر القرارات في الحدود أو يمضي قرارات قضاته، وأمّا هذا ففي جانب التطبيق، أي يطبق الحدود خارجاً، فلا يكون القرار مجرد حبر على ورق، أو أنّ «الحدود» هناك خاصة بالعقوبات، وهنا أعمّ بحيث تشمل كل الأحكام.

٧ ـ **(ويذبّ عن دين الله)** «الذبّ»: المنع، أي يدافع عن الدّين بدفع الشبهات.

ومراحل بيان الدّين تبدأ من دفع الشبهات، مروراً بالدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، وانتهاءً بإقامة الحجّة البالغة بالجدال بالتي هي أحسن.

(ويدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة) كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾(١).

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٥.

وَالْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ.

[خامساً: تشبيه الإمام بالنور]

الْإِمَامُ كَالشَّمْسِ الطَّالِعَةِ الْمُجَلِّلَةِ بِنُورِهَا لِلْعَالَمِ، وَهِيَ فِي الْأُفُقِ بِحَيْثُ لَا تَنَالُهَا الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارُ.

في المفردات: «الوعظ»: زجر مُقترن بتخويف، قال الخليل: «هو التذكير بالخير فيما يرقّ له القلب»[١].

و«الموعظة الحسنة»: البراهين القاطعة، أو بمعنى أن تكون بطريقة مناسبة، حتى تكون مقبولة، لا بالطُّرق الاستفزازية. **(و)** يدعو إلى سبيل الله بـ **(الحجة البالغة)** وهي آخر مراحل الدعوة.

بما أنّ النور هو الظاهر بنفسه المظهر لغيره، فكان بالنور تشبيه كل ما يوجب الهداية من الأنبياء والكتب السماوية والأئمة، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[٢]، وقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾[٣].

(الإمام كالشمس الطالعة المجلّلة بنورها) من جلّل تجليلاً بمعنى عمّ، أي الشمس التي تعمّ العالم بنورها، فنفعها عام **(للعالم وهي في الأفق)** ولكن **(بحيث لا تنالها الأيدي والأبصار)** أي: لا

---

(١) مفردات الراغب ص ٨٧٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٢.

(٣) سورة التغابن: الآية ٨.

الْإِمَامُ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ، والسِّراجُ الزَّاهِرُ، وَالنُّورُ السَّاطِعُ، وَالنَّجْمُ الْهَادِي فِي غَيَاهِبِ الدُّجَى، وَأَجْوَازِ الْبُلْدَانِ وَالْقِفَارِ،

يمكن تناولها باليد ولا امتلاء العين منها، وكذا الإمام نفعه عام، ولكن لا يمكن معرفة حقيقته لارتفاع قدره بحيث تقصر العقول عنه.

(الإمام البدر) هو القمر ليلة تمامه وكماله **(المنير)**.

(والسراج الزاهر) أي المضيء المشرق.

(والنور الساطع) أي المرتفع.

والحاصل هو تشبيه بمختلف الأنوار التي تضيء المكان والدرب للإنسان، فالشمس في النهار، والبدر في الليالي المقمرة، والسراج حين غياب الشمس والبدر، كما أن هذا النور ساطع لا ينحصر في مكان خاص بل هو مرتفع، وكل نور مرتفع يعمّ نوره فيعمّ نفعه.

(والنجم الهادي) هذا تشبيه، للنور الذي لا يضيء الأشياء، ولكنه منشأ للاهتداء، فتمّ تشبيه الإمام بمختلف الأنوار التي يستفيد منها الإنسان، قال تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[(١)].

(في غياهب الدجى) «الغيهب» الظلمة وشدّة السواد، و«الدجى»: ظلمة الليل، وإضافة الغياهب إلى الدجى ـ مع تقارب معنييهما ـ إضافة بيانية للدلالة على المبالغة.

(وأجواز البلدان والقفار) «أجواز» جمع جَوْز أي وسط الشيء،

---

(١) سورة النحل: الآية ١٦.

وَلُجَجِ الْبِحَارِ.

[سادساً: النجاة باتباع الإمام]

الْإِمَامُ الْمَاءُ الْعَذْبُ عَلَى الظَّمَإِ، وَالدَّالُّ عَلَى الْهُدَى،

«البلدان» يُراد بها الصحراء، ففي مفردات الراغب: وسُمِّيت المفازة بلداً لكونها موطن الوحشيات[1]، و«القفار» جمع قَفْر: الصحراء التي لا ماء فيها ولا كلأ.

ففي الصحارى الوسيعة الخالية عن الماء والكلأ، احتمال الضلال في الطريق كبير، لعدم وجود علامات ـ عادة ـ فيكون الاهتداء بالنجوم، وكذلك تكون الهداية بالإمام في ظلمات الضلال والانحراف.

(ولجج البحار) «اللّجة» الماء العميق ـ لاجتماع معظم الماء هناك ـ، والمياه الضحلة تقع عادة قرب السواحل، أمّا المياه العميقة فهي بعيدة عن الساحل ولا دليل للبحّارة هناك إلّا النجوم ـ عادة ـ.

كما أن الظامىء يموت إذا لم يجد الماء العذب، ومن ضلّ طريقه يهلك إذا لم يجد الطريق، والمبتلى بالعواصف الثلجية الباردة يتجمّد إن لم يجد وسيلة للتدفئة، كذلك من لا يتبع الإمام، وأما من اتبعه فينجو.

(الإمام الماء العذب على الظمإ، والدالّ على الهدى،

---

(١) المفردات ص ١٤٣.

وَالْمُنْجِي مِنَ الرَّدَى، الْإِمَامُ النَّارُ عَلَى الْيَفَاعِ، الْحَارُّ لِمَنِ اصْطَلَى بِهِ، وَالدَّلِيلُ فِي الْمَهَالِكِ، مَنْ فَارَقَهُ فَهَالِكٌ.

والمنجي من الردى) أي الهلاك، قال سبحانه: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾(١).

(الإمام النار على اليفاع) أي ما ارتفع من الأرض، يوقد فيه النار في الليالي الظلماء ليكون دليلاً للمسافرين والبحارة، كما يقال: «نار على منار».

(الحار لمن اصطلى به) أي يوجب الدّفء في البرد الشديد، كقوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾(٢).

(والدليل في المهالك، من فارقه فهالك).

---

(١) سورة طه: الآية ١٦.

(٢) سورة النمل: الآية ٧.

[سابعاً: عموم خير الإمام]

الْإِمَامُ السَّحَابُ الْمَاطِرُ، وَالْغَيْثُ الْهَاطِلُ، وَالشَّمْسُ الْمُضِيئَةُ، وَالسَّمَاءُ الظَّلِيلَةُ، وَالْأَرْضُ الْبَسِيطَةُ، ....

بيّن الإمام الرضا عليه السلام في هذا المطلب عموم نفع الإمام للجميع، فهو رحمة الله الواسعة يشمل خيره الجميع، كالمطر والشمس والسماء والأرض. . . الخ.

(الإمام السحاب) أي الغيم سواء كان فيه ماء أم لم يكن، ولذا قيّده بـ **(الماطر)**.

(والغيث) أي المطر لأنه يغيث الناس والأرض على العطش **(الهاطل)** المتتابع كالسيل.

(والشمس المضيئة)

(والسماء الظليلة) كقوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[1] كناية عن الرفاهية، أو أن السماء ـ وهي جهة العلو ـ تمنع من وصول الأجرام السماوية المضرّة إلى الأرض، فتكون عامة النفع، أو السماء بمعنى السقف ونحوه يحمي الانسان من الحر والبرد.

(والأرض البسيطة) قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[2]، فإن الأرض المبسوطة أكثر نفعاً.

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٧.

(٢) سورة نوح: الآيتان ١٩ ـ ٢٠.

وَالْعَيْنُ الْغَزِيرَةُ، وَالْغَدِيرُ وَالرَّوْضَةُ.

[ثامناً: نسبة الإمام إلى الناس]

الْإِمَامُ الْأَنِيسُ الرَّفِيقُ، وَالْوَالِدُ الشَّفِيقُ، ....

(والعين الغزيرة) كثيرة الماء.

(والغدير) أي: ما يتجمع من ماء المطر في الأماكن المنخفضة في الصحارى ونحوها.

(والروضة) أي الأرض فيها ماء ونبات حسن.

والحاصل: كل هذه أمور مفيدة للإنسان في حالاته المختلفة، فكما أن الانسان بحاجة إلى المطر، كذلك بحاجة إلى الشمس، وكما يحتاج إلى الظل، كذلك يحتاج إلى الأرض البسيطة للزراعة ونحوها، وكما يحتاج إلى المياه الجارية، كذلك يحتاج إلى المتجمعة منها، فكذلك الإمام يحتاج الإنسان إليه في مختلف الحالات، وخيره شامل في كلها.

ثم إن الإمام يريد خير الناس، ويؤلمه ضلالهم، ويحاول إيصال النفع إليهم، فلذا تمّ تشبيهه بالأنيس والأخ والوالد... الخ.

(الإمام الأنيس) أي ما يأنس به الإنسان من أصدقائه، **(الرفيق)** من الرفق وهو ضد الخرق، أي أنيس يتعامل مع صديقه بلطف ومداراة.

(والوالد الشفيق) من الشفقة بمعنى الحب المختلط بالخوف على المحبوب.

وَالْأَخُ الشَّقِيقُ، وَالْأُمُّ الْبَرَّةُ بِالْوَلَدِ الصَّغِيرِ، وَمَفْزَعُ الْعِبَادِ فِي الدَّاهِيَةِ النَّآدِ.

[تاسعاً: نسبة الإمام إلى الله تعالى]

الْإِمَامُ أَمِينُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَحُجَّتُهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَخَلِيفَتُهُ فِي بِلَادِهِ، وَالدَّاعِي إِلَى اللَّهِ، وَالذَّابُّ عَنْ حُرَمِ اللَّهِ.

(والأخ الشقيق) أي كالأخ النسبي، وكثيراً ما يُستعمل في الأخ من الأبوين، كأنه انشق الشيء نصفين، لشباهة أحدهما بالآخر.

(والأم البرّة بالولد الصغير).

(ومفزع العباد في الداهية النّآد) «المفزع» الملجأ، و«الداهية» الأمر العظيم الفادح، «النّآد» بنفس معنى الداهية، فيكون وصف الداهية بالنّآد للمبالغة، مثل سواد حالك، وأصفر فاقع ونحوهما.

والحاصل: أن الإمام رؤوف، رحيم، حريص على الناس، وعلى خيرهم.

(الإمام أمين الله في خلقه) فهو يبلّغ ما أراده الله بلا تغيير، ويعمل بما يريده تعالى بلا تبديل. **(وحجته على عباده).**

(وخليفته في بلاده).

(والداعي إلى الله).

(والذابّ عن حرم الله) «حُرَم» جمع حُرمة، وهي ما لا يجوز

[عاشراً: صفات الإمام]

الْإِمَامُ الْمُطَهَّرُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمُبَرَّأُ عَنِ الْعُيُوبِ، الْمَخْصُوصُ بِالْعِلْمِ، ....

انتهاكها، و«حُرَم الله» هي ما أمر الله بتعظيمها، كأحكامه وأوليائه وبقاعه المقدسة ونحوها.

الإمام يلزم أن يكون معصوماً من الذنوب، خالٍ من العيوب في الخلقة والأخلاق، ذا الكمالات، ... الخ، وبعض أهم هذه الأمور تكفل الإمام الرضا عليه السلام ببيانها في هذا المقطع.

(الإمام المطهّر من الذنوب) لأنها رجس، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

(والمبرأ عن العيوب) سواء عيوب في الجسم، فلا نقص فيه أصلاً، فإنّ الأنبياء والأئمة عليهم السلام لم يكن في أجسامهم عيب أصلاً، لتكمل الحجة على الناس، وما ورد في ابتلائهم فمؤوّل بما لا يكون عيباً في الخلقة.

أم عيوب في الأخلاق، فهم منزّهون من الحسد والجبن ونحوهما، لما دلّ على لزوم كونهم أفضل الناس ولأدلة أخرى.

(المخصوص بالعلم) أي خصّه الله بالعلم كلّه، في حين أنّ

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

الْمَوْسُومُ بِالْحِلْمِ، نِظَامُ الدِّينِ، وَعِزُّ الْمُسْلِمِينَ، وَغَيْظُ الْمُنَافِقِينَ، وَبَوَارُ الْكَافِرِينَ.

سائر الناس لهم بعض جوانب العلم، أو المعنى أنّ علمهم لَدُنّي لا يحتاج إلى كسب، فخصّهم الله بذلك، عكس سائر الناس.

(**الموسوم بالحلم**) تخصيص الحِلم بالذكر ـ مع تحلّيهم بسائر الفضائل أيضاً ـ لأهمية الحلم، ولكثرة ابتلائهم بجهل الجاهلين.

(**نظام الدّين، وعزّ المسلمين**) مرّ في المطلب الثاني «الإمامة نظام المسلمين وعز المؤمنين» وهنا «الإمام نظام الدّين وعزّ المسلمين» والفرق أن هناك كان الكلام حول الإمامة كمنصب، وهنا حول الإمام كشخص، فالإمامة نظام والإمام هو المنفّذ لهذا النظام، كما أن عزّ المسلمين كما يكون بتشريع الإمامة كذلك يكون عزّهم بوجود الإمام، فتأمل.

(**وغيظ المنافقين**) لأن المنافقين يغتاظون من المؤمنين، فكيف بإمام المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ**﴾[1].

(**وبوار الكافرين**) أي هلاكهم، فإنّه بالإمام تعمّ الهداية فيموت الكفر، أو بمعنى أنه يقاتل الكفار فيهلكهم.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٩.

[الحادي عشر: فضل الإمام على الناس]

الْإِمَامُ وَاحِدُ دَهْرِهِ، لَا يُدَانِيهِ أَحَدٌ، وَلَا يُعَادِلُهُ عَالِمٌ، وَلَا يُوجَدُ مِنْهُ بَدَلٌ، وَلَا لَهُ مِثْلٌ وَلَا نَظِيرٌ، ....

إن الله خصّ الإمام بالفضائل كلها، فلذا لا نظير له في كل الخلق ـ إلّا إمام مثله صامت ـ.

ولعلّ في الحديث دلالة على ترتب الأئمة في الفضل على حسب ترتيبهم في الإمامة، فكل إمام سابق أفضل من الإمام اللاحق، أو يقال إن الإمام الصامت أيضاً إمام فهو يشارك الإمام اللاحق في كل هذه الصفات فكلاهما واحد دهره لا يدانيهما أحد... الخ.

والمقصود بالإمام الصامت كالإمام الحسين عليه السلام في زمان الإمام الحسن عليه السلام.

(**الإمام واحد دهره، لا يدانيه**) أي لا يقترب إلى منزلته وفضله (**أحد، ولا يعادله**) أي لا يساويه في علمه (**عالم، ولا يوجد منه بدل**) أي في زمان حياته، نعم بعد وفاته يخلفه إمام بعده، وهكذا إلى انقضاء الدهر، لئلّا تخلو الأرض من حجّة.

(**ولا له مثل ولا نظير**) في معجم الفروق اللغوية: أن المثلين: ما تكافآ في الذات ـ على ما ذكرنا ـ، والنظير: ما قابل نظيره في

مَخْصُوصٌ بِالْفَضْلِ كُلِّهِ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ مِنْهُ لَهُ، وَلَا اكْتِسَابٍ، بَلِ اخْتِصَاصٌ مِنَ الْمُفْضِلِ الْوَهَّابِ.

[الثاني عشر: عدم معرفة كنه الإمام]

فَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْلُغُ مَعْرِفَةَ الْإِمَامِ، أَوْ يُمْكِنُهُ اخْتِيَارُهُ،

جنس أفعاله وهو متمكن منها، كالنحوي نظير النحوي ـ وإن لم يكن له مثل كلامه في النحو أو كتبه فيه ـ[1].

(**مخصوص بالفضل كلّه، من غير طلب منه له**،) من الإمام للفضل (**ولا اكتساب**،) ولعلّ الفرق أن الطلب بغير مشقة والاكتساب مع المشقة، أو الأول بمعنى السؤال ـ أي الدعاء ليُعطى ـ والثاني بمعنى العمل ليصل إليه (**بل اختصاص من المفضّل الوهّاب**).

ثم بيّن الإمام الرضا عليه السلام عدم معرفة أحد بحقيقة الإمام، لقصورهم عن إدراكه بكنهه، فلذا لا يكون اختياره إلّا من الله تعالى، العالم بحقائق كل الأشياء.

ففي البداية يتمّ إجمالاً بيان عدم معرفة أحد بالإمام، ثم بيان تفصيلي أن العقول والحواس وكل أصناف الناس لا يتمكنون من معرفته.

(**فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام، أو يمكنه اختياره؟**)

---

(١) معجم الفروق اللغوية ص ٤٨٠ ـ ٤٨١، (الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري، وجزءاً من كتاب السيد نور الدين الجزائري) ط. مؤسسة النشر الاسلامي ١٤٢٩ ـ قم.

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، ضَلَّتِ الْعُقُولُ، وَتَاهَتِ الْحُلُومُ، وَحَارَتِ الْأَلْبَابُ، وَخَسَأَتِ الْعُيُونُ وَتَصَاغَرَتِ الْعُظَمَاءُ، وَتَحَيَّرَتِ الْحُكَمَاءُ، وَتَقَاصَرَتِ الْحُلَمَاءُ، ....

(هيهات هيهات) التكرار إما للتأكيد، أو إشارة إلى عدم إمكان كلا الأمرين: هيهات المعرفة وهيهات الاختيار.

(ضلّت العقول، وتاهت الحلوم، وحارت الألباب) بيان بُعد معرفته عن العقول، والألباب والحلوم والعقول متقاربة المعنى.

(وخسأت العيون) بيان بُعد معرفته عن الحواس، وأقرب الأعضاء للمعرفة هي العين، لسعة إحاطتها بالأشياء أكثر من سائر الحواس، ولذا خصّها بالذكر.

ثمّ بيّن الإمام الرضا عليه السلام بيان بُعد معرفته عن كل أصناف الناس، وخصّ بالذكر أهم تلك الأصناف.

(وتصاغرت العظماء) فمهما كانوا عظماء، لكنهم يتصاغرون أمام عظمة الإمام وشؤونه وأوصافه.

(وتحيّرت الحكماء)، الحكيم يضع الشيء في موضعه وذلك لا يكون إلَّا بعد المعرفة، لذا يتحيّر عندما يصل إلى الإمام، لعدم معرفته بكنهه فلا يدري أين يضع شأنه.

(وتقاصرت الحلماء)، الحليم راجح العقل، فلذا له الطول

وَحَصِرَتِ الْخُطَبَاءُ، وَجَهِلَتِ الْأَلِبَّاءُ، وَكَلَّتِ الشُّعَرَاءُ، وَعَجَزَتِ الْأُدَبَاءُ، وَعَيِيَتِ الْبُلَغَاءُ، عَنْ وَصْفِ شَأْنٍ مِنْ شَأْنِهِ، أَوْ فَضِيلَةٍ مِنْ فَضَائِلِهِ، وَأَقَرَّتْ بِالْعَجْزِ وَالتَّقْصِيرِ، وَكَيْفَ يُوصَفُ بِكُلِّهِ، أَوْ يُنْعَتُ بِكُنْهِهِ، أَوْ يُفْهَمُ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِ، ....

على الأشياء، لكنه حينما يصل إلى معرفة الإمام فإنه يتقزّم ويقصر عقله عن بلوغ شأنه.

(وحصرت الخطباء) أي امتنع عليهم الكلام، **(وجهلت الألباء)** جمع لبيب وهو العاقل **(وكلّت الشعراء، وعجزت الأدباء، وعييت البلغاء)** أي عجزت، جمع بليغ، والبلاغة الكلام حسب مقتضى الحال مع حسن اختيار الكلمات.

(عن وصف شأن من شأنه) أي حالة من حالاته، كحالاته مع ربّه، أو مع نفسه، أو مع سائر الناس، فكلّها حالات في أقصى درجات الكمال، بحيث تُدرك ولا تُوصف، **(أو فضيلة من فضائله)**، وهؤلاء الأصناف حيث لم يدركوها فإنهم يعجزون عن وصفها بكنهها.

(وأقرّت بالعجز والتقصير) المؤمن أو المنصف منهم يقرّ باللّسان، وغيرهما يقرّ بالأفعال، أي فعله يدلّ على عدم تمكّنه من ذلك.

(وكيف يوصف) استفهام إنكاري **(بكلّه)** بأوصافه، **(أو ينعت بكنهه)** بحقيقة ذاته، **(أو يفهم شيء من أمره)** أفعاله أو ما يرتبط به.

أَوْ يُوجَدُ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ وَيُغْنِي غِنَاهُ لَا كَيْفَ وَأَنَّى؟ وَهُوَ بِحَيْثُ النَّجْمِ مِنْ يَدِ الْمُتَنَاوِلِينَ، وَوَصْفِ الْوَاصِفِينَ، فَأَيْنَ الِاخْتِيَارُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيْنَ الْعُقُولُ عَنْ هَذَا؟ وَأَيْنَ يُوجَدُ مِثْلُ هَذَا؟!

(**أو يوجد من يقوم مقامه، ويغني غناه**) أي يؤدّي نفعه، وأصل «الغنى» بمعنى الكفاية.

(**لا**) جواب عن الاستفهام الإنكاري، أي لا يمكن أن يوصف بكلّه... الخ (**كيف**) تكرار الاستفهام الإنكاري للتأكيد، (**وأنّى**) تأكيد للاستفهام الإنكاري باستفهام عن المكان، بمعنى أيّ مكان يوجد وصفه ونعته وفهمه أمره... الخ.

(**وهو**) الواو للحال، أي كيف يمكن وصفه والحال أنه (**بحيث النجم**) أي في مكان النجم، (**من يد المتناولين، ووصف الواصفين**) وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس.

(**فأين الاختيار من هذا؟**) أي كيف يمكن اختيار هذا الإمام الذي لا يمكن لأحد معرفة حقيقته، بل لا بدّ من تعيين من الله تعالى العالم بحقائق كل الأشياء.

(**وأين العقول عن هذا؟ وأين يوجد مثل هذا؟**) أي المتّصف بهذه الصفات ليس متعدّد حتى يختار الناس أحدهم، بل هو في شخص واحد، فيكون هو الإمام المعيّن من قِبل الله تعالى.



الفصل الثالث

المخالفة لاختيار الله تعالى!!

أَتَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ يُوجَدُ فِي غَيْرِ آلِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَذَبَتْهُمْ وَاللَّهِ أَنْفُسُهُمْ، وَمَنَّتْهُمُ الْأَبَاطِيلَ، ....

ثم بيّن الإمام الرضا عليه السلام أن المخالفين ضلّوا حينما تركوا ما اختاره الله تعالى، وأرادوا إقامة الإمام بعقولهم، فلم يزدادوا عن الحق إلَّا بُعداً، مع إتمام الحجة عليهم بالآيات الصريحة الدالّة على أن الاختيار لله تعالى، لا للناس.

(**أتظنون أن ذلك يوجد في غير آل الرسول محمد ﷺ؟ كذبتهم والله أنفسهم**) أي شهدت لهم أنفسهم بكذب مقالتهم، بمعنى أنهم حين يراجعون أنفسهم لا يجدون الإمامة في غير آل محمد ﷺ، فنفسهم تكذب ما يظهرون من قول، نظير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾[1].

(**ومنّتهم الأباطيل**) أي الأباطيل صوّرت لهم ما لا حقيقة له، بجعل الإمامة في غير آل محمد ﷺ، قيل: «منّتهم» بمعنى أضعفتهم وأعجزتهم.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٦٥.

فَارْتَقَوْا مُرْتَقًى صَعْباً دَحْضاً، تَزِلُّ عَنْهُ إِلَى الْحَضِيضِ أَقْدَامُهُمْ، رَامُوا إِقَامَةَ الْإِمَامِ بِعُقُولٍ حَائِرَةٍ بَائِرَةٍ نَاقِصَةٍ، وَآرَاءٍ مُضِلَّةٍ، فَلَمْ يَزْدَادُوا مِنْهُ إِلَّا بُعْداً ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]. ....

(**فارتقوا مرتقى صعباً دحضاً**) أي صعدوا مكاناً منيعاً، والمراد أن الإمامة منصب رفيع لا يمكن الوصول إليه، و«مرتقى» مكان عال، و«صعباً» صعب المنال بمعنى استحالة الوصول إليه، «دحضاً» زَلِقاً تزلّ الأقدام دونه، (**تزل عنه إلى الحضيض أقدامهم**) أي من حاول احتلال موقع الإمام ـ بغير أمر من الله ـ فإنَّ قدمه تزلّ به إلى نار جهنم.

(**راموا إقامة الإمام بعقول حائرة بائرة**) أي هالكة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾[1]، (**ناقصة، وآراء مُضِلّة**) أي آراء أضلتهم، أو آراء أضلّها الشيطان، (**فلم يزدادوا منه**) أي من الإمام الحق (**إلّا بُعداً**).

(﴿**قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ**﴾) دعاء عليهم بالهلاك (﴿**أَنَّىٰ**﴾) كيف (﴿**يُؤْفَكُونَ**﴾) يُصرفون من الحق إلى الباطل. نزلت في اليهود والنصارى، وفي المنافقين، قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الفرقان: الآية ١٨.

(٢) سورة المنافقون الآية ٤، وفي اليهود والنصارى ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ الآية، سورة التوبة الآية ٣٠.

وَلَقَدْ رَامُوا صَعْباً، وَقَالُوا إِفْكاً، وَضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيداً، وَوَقَعُوا فِي الْحَيْرَةِ، إِذْ تَرَكُوا الْإِمَامَ عَنْ بَصِيرَةٍ، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾

(**ولقد راموا صعباً**) أي قصدوا أمراً لا يمكنهم الوصول إليه، (**وقالوا إفكاً**) أي كذباً لأنهم صرفوا الإمامة عن أهلها وجعلوها في غيرهم، (**وضلّوا ضلالاً بعيداً**) أي الضلال الذي يصعب الرجوع منه إلى الهدى، تشبيهاً بمن ضلّ عن مَحَجَّة الطريق بُعداً متناهياً فلا يكاد يُرجى له العود إليها ـ كما في المفردات[1] ـ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[2].

(**ووقعوا في الحيرة اذ تركوا الإمام عن بصيرة**) أي كانوا يعلمون أنه الإمام، وقد أقام رسول الله ﷺ عليهم البراهين الواضحة، وأخذ منهم البيعة، ومع ذلك خالفوا أمر الله وأمر رسوله.

(﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾) بأن رأوها حسنة، (﴿فَصَدَّهُمْ﴾) أي منعهم الشيطان (﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾) المستقيم وهو طريق الحق (﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾) أي كانوا يميّزون بين الحقّ والباطل، ومع ذلك

---

(١) مفردات الراغب ص١٣٣.

(٢) سورة النساء: الآيتان ٦٠ ـ ٦١.

رَغِبُوا عَنِ اخْتِيَارِ اللَّهِ وَاخْتِيَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَهْلِ بَيْتِهِ إِلَى اخْتِيَارِهِمْ، وَالْقُرْآنُ يُنَادِيهِمْ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ .... [العنكبوت: ٣٨].

خالفوا فأهلكهم الله تعالى، والمُراد أنهم قد تمّت عليهم الحجة، أو بمعنى أنهم كانوا متمكنين من النظر ولكنهم لم ينظروا فأهلكم الله بذنوبهم.

(**رغبوا عن اختيار الله و**) رغبوا عن (**اختيار رسول الله ﷺ وأهل بيته**) وإنما كان الرسول وأهل البيت لأنهم رضوا باختيار الله وبلّغوه، قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1].

مع أن اختيار القادة بيد الله تعالى، وبأمره تنصب الرؤساء للدّين والدنيا، كما أن جميع النّعم منه، فله كل الحمد، (**والقرآن يناديهم**: ﴿وَرَبُّكَ﴾) يا رسول الله (﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾) وهذا تمهيد لقوله: (﴿وَيَخْتَارُ﴾) فإنّ مَن له الخلق هو الذي له الاختيار، إذ كيف يمكن أن يخلق ويملك شخص، ويكون الاختيار بيد غيره؟ (﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾) أي ليس للكفار أن يختاروا لأنفسهم ـ كما كانوا يختارون الكفر خوفاً من الاختطاف ـ، «والخيرة» اسم من الاختيار، أُقيم مقام المصدر.

(﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾) أي أنزّه الله تنزيهاً عن أن يكون أعطى الاختيار

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٠.

﴿وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨] **وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] **الْآيَةَ. وَقَالَ**: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ﴾ ....

بيد الناس ـ حتى يعملوا كيفما يشاؤون ـ (﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾) أي ترفّع، والمعنى أنه أرفع (﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾)[1].

(**وقال عزّ وجل** ﴿وَمَا كَانَ﴾) لا يجوز (﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ﴾) أي حكم (﴿ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾) أي حكماً سواء كان أمراً أم نهياً (﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾) الاختيار بخلاف أمر الله والرسول (﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾) أي من جهة أمر أنفسهم، وتتمة (**الآية**) هي ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بمخالفة أوامرهما ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ واضحاً.

وهؤلاء لا مستند لهم في دعواهم بأن الاختيار بيدهم لأن المستند إما عقل، أو نقل، أو وعد، أو تقليد، أو شركاء، والثلاثة الأولى لا توجد، والأخيران باطلان.

١ ـ (**وقال**: ﴿مَا لَكُمْ﴾) استفهام إنكاري (﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾) حكماً باطلاً لا يرتضيه عقل.

٢ ـ (﴿أَمْ﴾)، منقطعة للإضراب وتتضمن معنى الاستفهام الإنكاري، (﴿لَكُمْ كِتَـٰبٌ﴾) سماوي نزل على الأنبياء السابقين (﴿فِيهِ

---

(١) تقريب القرآن ج٤ ص ١٧١، ١٧٢.

تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [القلم: ٣٦ ـ ٤١].

تَدْرُسُونَ﴾) أي تقرؤون: (﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ﴾) في الكتاب (﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾) أي لكم ما تختارونه.

٣ ـ (﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ﴾) أي عهود ومواثيق مؤكدة بالأيمان (﴿بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾) أي مؤكدة توكيداً شديداً، أو بمعنى أن العهود لكم جيلاً بعد جيل حتى قيام الساعة، وتلك العهود: (﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾) به لأنفسكم.

٤ ـ (﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾) أي إن لهم ما يتخيّرون وما يحكمون (﴿زَعِيمٌ﴾) كفيل، فهم في ذلك يتبعونه.

٥ ـ (﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾) في هذا القول، أو آلهة وعدوهم هذا الوعد (﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾) في يوم القيامة ـ وهذا استهزاء بهم ـ (﴿إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾) فيما ادّعوه.



الفصل الرابع

سبب تركهم الإمام الحق

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾

ثم بيّن الإمام الرضا عليه السلام، أن سبب ترك المخالفين للإمام الحق، ليس هو عدم الاستبصار ولا لنقصان الحجة، ولا عدم بلوغها، بل السبب هو قفل القلوب، والطبع عليها، وعدم السماع، وعدم استعمال العقول، والعصيان.

(وقال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾) هؤلاء المنافقون (﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾) ليفهموا أن الله جازى المخالفين في الأمم السابقة بعقاب الدنيا وعذاب الآخرة، لعلّهم يرتدعون عن غيّهم، (﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾) قلوبهم (﴿أَقْفَالُهَآ﴾) فلا يمكنهم التدبّر؟ أي: يقدرون فلا يتدبّرون، أم لا يقدرون؟ وهذه عبارة بلاغية تُقال كناية عن أنّ الطرف معاند لا ينفع معه الوعظ والإرشاد، كما يُقال لمن سقط في البئر: «هل غمضت عينيك أم أنت أعمى»، ولعلّ تنكير «قلوب» لأجل إفادة ابتعادها حتى كأنها نكرة، وإضافة الأقفال إليها: لبيان أنّ للقلوب أقفالاً خاصة ـ هي التعامي والعناد، مما يسبب عدم نفاذ العلم والفضيلة فيها ـ[1].

---

(١) تقريب القرآن ج٥ ص ١٦٥.

[محمَّد: ٢٤] أَمْ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ. أَمْ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ....

(أم طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون) هذا الكلام من الإمام عليه السلام اقتباس من آيات القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١)، وقوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾(٢)، وإنما طبع الله على قلوبهم لتعدّيهم حدود الله بسوء اختيارهم، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾(٣).

(أم) لم يسمعوا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ حيث إن المؤمنين هم المنتفعون بهذا الخطاب فلذا خصّه بهم، مع أن الإطاعة واجبة على الجميع، ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي لا تُعرضوا عن الرسول صلى الله عليه وآله ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أوامره ونواهيه ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ﴾ كاليهود والمنافقين الذين (﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾) أي لا يعملون بما سمعوا، فمع أن الكلام قرع أسماعهم لكنهم تركوه عمداً، فإن هؤلاء أسوأ من الحيوانات إذ (﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ﴾)، هم الكفار الذين هم: (﴿الصُّمُّ﴾) الذين لا يسمعون سماع تفهم، (﴿الْبُكْمُ﴾) الذين لا ينطقون بالحق، (﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾) أي

---

(١) سورة التوبة: الآية ٩٣.
(٢) سورة التوبة: الآية ٨٧.
(٣) سورة يونس: الآية ٧٤.

وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢١ ـ ٢٣]. أَمْ ....

لا يستعملون عقولهم، (﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾) أي أزال الأغشية عن قلوبهم لكي يقبلوا الحق، لكن الله علم أن لا خير فيهم بسوء اختيارهم، فهم معاندون حتى وإن زالت أغشية قلوبهم، (﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾) بإزالة الأغشية (﴿لَتَوَلَّوا﴾) أي أعرضوا عن الحق بأجسامهم (﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾) بقلوبهم.

والحاصل أن هناك:

١ ـ سماعاً بمعنى قرع الكلام للآذان، وهذا حاصل للكل ـ من المؤمنين والمنافقين ـ.

٢ ـ وسماعاً بمعنى إزالة الغشاوة عن القلوب، وهذا خاص بالمؤمنين.

٣ ـ طهارة القلوب ذاتاً ـ بسبب حسن الاختبار ـ، فمن كان قلبه طاهراً أزال الله عنه الأغشية، فينتفع بما يقرع سمعه، ومن كان قلبه رجساً فلا ينفعه إزالة الغشاوة، بل حتى لو أزال الله غشاوة قلبه فإنه يبقى على رجسه ولا ينتفع بما يقرع سمعه.

(أم) سمعوا كلام الله ورسوله في تعيين الإمام لكنهم عصوه، فقال الله تعالى لهم: ﴿خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الأحكام ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي

﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] بَلْ هُوَ ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

بتأكيد وشدة ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ سماع طاعة وانقياد، لكنهم (﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾) قولك (﴿وَعَصَيْنَا﴾) أمرك.

(بل هو) أي منصب الإمامة كما قال تعالى: (﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾)، وليس اختيار من الناس، (﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾)[١].

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢١.



الفصل الخامس

اختصاص آل محمد عليهم السلام بالإمامة

فَكَيْفَ لَهُمْ بِاخْتِيَارِ الْإِمَامِ؟! وَالْإِمَامُ عَالِمٌ لَا يَجْهَلُ، وَرَاعٍ لَا يَنْكُلُ، مَعْدِنُ الْقُدْسِ وَالطَّهَارَةِ، ....

بعد أن بيّن الإمام الرضا عليه السلام جملة من الأمور المرتبطة بالإمام والإمامة بشكل كليّ، أراد عليه السلام أن يبيّن أشخاص الأئمة عليهم السلام، وأن الإمامة ـ بعد الرسول صلى الله عليه وآله ـ خصّها الله تعالى بآل محمد صلى الله عليه وآله، وكان عليه السلام قد بيّن ذلك إجمالاً في قوله: «أتظنون أن ذلك يوجد في غير آل محمد صلى الله عليه وآله»، وهنا أراد التفصيل في الأوصاف ـ في العلم والعبادة والعمل والنسب والحسب وغيرها ـ بحيث لا تنطبق الإمامة إلّا على أئمة الهدى عليهم السلام.

(فكيف لهم باختيار الإمام؟ والإمام عالم لا يجهل) هذا في الجانب العلمي، فهو يعلم كل ما تحتاج إليه الأمة، **(وراع لا ينكل)** وهذا في الجانب الإداري أي يقود الأمة بلا ضعف وجبن.

(معدن) أي ليس متحلٍّ بالعلم والرعاية فحسب، بل هو منشأ للخيرات مثل **(القدس والطهارة)** في المرآة[1]: «القدس» ـ بالضم

---

(١) مرآة العقول ج٢، ص٣٩٤.

وَالنُّسُكِ وَالزَّهَادَةِ وَالْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ، مَخْصُوصٌ بِدِعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ ....

وبضمتين ـ وهو البراءة من العيوب، و«الطهارة» وهي البراءة من الذنوب، ويمكن أن يكون القدس في المعنويات والطهارة في الأعمّ.

(و) هو معدن (**النسك والزهادة**) لعل المراد بالنسك ـ هنا ـ: صفاء النفس وخلوصها[١]، و«الزهادة» عدم تعلّق القلب بالدنيا والرغبة عنها.

ولا يخفى التناسب بين هذه الفقرات، فـ «القدس والطهارة» للدلالة على الابتعاد عن الرجس، و«النسك والزهادة» للدلالة على عدم التعلّق بالدنيا.

(و) هو معدن (**العلم والعبادة**) وهما متلازمان، فالعلم الحق يدعو الى العبادة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[٢].

(**مخصوص بدعوة الرسول** ﷺ) «الدِّعوة» ـ بكسر الدال ـ بمعنى ادّعاء النسبة ـ كما في المفردات[٣]ـ، فلا أحد يدّعي النسب إلى رسول الله ﷺ إلّا ذرية فاطمة عليها السلام، وقد قال ﷺ: «كل حسب

---

(١) «النُّسُك» يطلق على العبادة والطاعة، وعلى جمع النسيكة أي الذبيحة، وقيل (هو مأخوذ من النسيكة بمعنى سبيكة الذهب المصفاة كأنه صفى لله نفسه)، وقد شرحناه حسب المعنى الأخير، وهو أنسب ـ لكي لا يكون تكرار في العبارة ـ.

(٢) سورة فاطر: الآية ٢٨.

(٣) مفردات الراغب ص٣١٥.

وَنَسْلِ الْمُطَهَّرَةِ الْبَتُولِ، لَا مَغْمَزَ فِيهِ فِي نَسَبٍ، وَلَا يُدَانِيهِ ذُو حَسَبٍ، فِي الْبَيْتِ ....

ونسب منقطع يوم القيامة إلّا حسبي ونسبي»[١] أو هو من الدعوة بفتح الدال من الدعاء، لأنه عليه السلام خصّهم بأدعية خاصة كقوله: «انصر مَن نصره واخذل مَن خذله»[٢]

(ونسل المطهّرة البتول) من التبتّل، بمعنى الانقطاع في العبادة وإخلاص النيّة، كما قال تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[٣]، وكذا الانقطاع عمّا تراه النساء من الدم.

(لا مغمز فيه في نسب) «الغمز» الإشارة بالجفن أو اليد طلباً للعيب، والمغمز: اسم مكان أو مصدر، وآباء وأمهات الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام طاهرو المولد مبرؤون من العهر إلى آدم عليه السلام عكس خلفاء الجور، كما عرَّض أمير المؤمنين عليه السلام بمعاوية حين كتب إليه «ولا الصريح كاللصيق»[٤].

(ولا يدانيه ذو حسب) الحسب هو الفضائل التي تُعدّ وتحسب وفي المقاييس: قال أهل اللغة: معناه أن يَعُدّ آباءً أشرافاً[٥] **(في البيت**

---

(١) بحار الأنوار: ج٦، ص٣١٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٣٧، ص١٤٩.
(٣) سورة المزمل: الآية ٨.
(٤) نهج البلاغة، الكتاب ١٧.
(٥) مقاييس اللغة ص٢٤٤.

مِنْ قُرَيْشٍ، وَالذِّرْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ، وَالْعِتْرَةِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَالرِّضَا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ....

من قريش) كما روت العامة ذلك أيضاً في صحاحهم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الخلفاء من بعدي اثنا عشر كلّهم من قريش»[١].

(والذّروة من هاشم) «الذروة» ـ بالضم والكسر ـ: أعلى الشيء، أي أفضل ذريّة هاشم، فعبد المطّلب أفضل من أخوته، وعبد الله وأبو طالب أفضل من سائر أخوتهم، والإمام علي عليه السلام أفضل من أخوته، وهكذا.

وفي المرآة: «قيل: المُراد أن يكون من فاطمة المخزومية، أُم عبد الله وأبي طالب والزبير»[٢].

(والعترة من الرسول ﷺ) «العترة»: أخصّ أقارب الرجل، وعترة النبي ﷺ هم أولاده، والإمام علي عليه السلام وأولاده عليهم السلام.

(والرضا من الله عزّ وجل) أي المرضي منه تعالى، ولعلّ ذكر هذا المقطع ـ هنا ـ لأنه لما ذكر نسبه إلى الرسول، أراد ذكر ارتباطه بالله تعالى، فأقرب ما يكون الرجل إلى رسول الله ﷺ حينما يكون من عترته، وأقرب ما يكون الى الله حين رضا الله عنه.

---

(١) رواه البخاري في كتابه: ج٨، ص١٢٧.
(٢) مرآة العقول ج٢، ص٣٩٥.

شَرَفُ الْأَشْرَافِ، وَالْفَرْعُ مِنْ عَبْدِ مَنَافٍ، ....

(شرف الأشراف) أي أعلى من كل شريف، والشريف عالي النسب أو الحسب.

(والفرع من عبد مناف) فرع كل شيء أعلاه.

ثم اعلم لعلّ التأكيد على هذه الأوصاف لإخراج خلفاء الجور، أو من ادُعِيَ لهم الإمامة، فالذروة من هاشم لإخراج بني عباس، والفرع من عبد مناف لإخراج بني أمية لأنهم ألصقوا إلى عبد الشمس بن عبد مناف، والعترة من الرسول لإخراج غير أقربائه، ونسل المطهّرة البتول لإخراج مثل محمّد ابن الحنفية حيث ادّعت الكيسانية إمامته.

كما أن ترتيب الأوصاف هذه لرعاية السجع ليكون أبلغ، وأما لو أُريد ترتيب هذه الأوصاف خارجاً بدءاً من الوصف الأعمّ وانتهاءً بالأخصّ ـ فيكون: البيت من قريش، ثم الفرع من عبد مناف، ثم الذروة من هاشم، ثم دِعوة الرسول ـ أي ادّعاء النسبة إليه ـ، ثم عترته، ثم نسل المطهّرة البتول، بدءاً من الوصف الأعم وانتهاءً بالأخصّ.

وفي نهج البلاغة في كتاب له إلى معاوية «وأما قولك: إنّا بنو عبد مناف، فكذلك نحن، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطليق،

نَامِي الْعِلْمِ، كَامِلُ الْحِلْمِ، مُضْطَلِعٌ بِالْإِمَامَةِ، عَالِمٌ بِالسِّيَاسَةِ، مُفْرُوضُ الطَّاعَةِ، قَائِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، .....

ولا الصريح كاللصيق، ولا المحق كالمبطل، ولا المؤمن كالمدغل، ولبئس الخلف خلفٌ يتبع سلفاً هوى في نار جهنم...»[١].

(نامي العلم) أي علمه في زيادة باستمرار، واستفاضت الأحاديث على أنهم يزدادون وأنهم محدثون وغيرها.

(كامل الحلم) أي العقل، فالمراد أن عقلهم كامل لا يتصوّر فوقه شيء، وأما علمهم فهو في ازدياد بفضل الله تعالى عليهم، وهذا لا ينافي علمهم بما كان وما يكون وما هو كائن، وذلك لأن العلم لا ينحصر فيها بل هو أعمّ، وأيضاً لاحتمال البداء فيها.

(مضطلع بالإمامة) أي يقوى عليها، فيقوم بأعبائها بأتمّ وجه.

(عالم بالسياسة) أي بقيادة الأمة، من ساس الدّابة إذا قام بما يُصلح شأنها.

(مفروض الطاعة)،

(قائم بأمر الله عزّ وجل) أي المتكفّل بتنفيذ إرادة الله تعالى، أو بمعنى مراعاته لكل ما يرتبط بالله عزّ وجلّ من أمور العباد والبلاد.

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب ١٧.

نَافِعٌ لِعِبادِ اللَّهِ، حَافِظٌ لِدِينِ اللَّهِ.

(ناصح لعباد الله، حافظ لدين الله).

هذا المقطع من قوله «نامي العلم... » فيه إشارة إلى ثلاثة أمور:

١ ـ إنه جدير بالإمامة، لعلمه وعقله وحسن إدارته.

٢ ـ إن طاعته واجبة، وهذا يرتبط بوظيفة الناس تجاهه.

٣ ـ إنه متكفّل لما يرتبط بالله تعالى، من أمره ودينه وعباده.



الفصل السادس

فضائل الإمام بفضل من الله تعالى

إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَئِمَّةَ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ يُوَفِّقُهُمُ اللَّهُ، وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ مَخْزُونِ عِلْمِهِ وَحُكَمِهِ مَا لَا يُؤْتِيهِ غَيْرَهُمْ،

ثم أكّد الإمام الرضا عليه السلام على أن ما يتحلّى به الإمام من صفات ـ تجعله قابلاً للإمامة ـ إنما هو بفضل من الله تعالى، وهذا الفضل خصّه الله بمن اختارهم واصطفاهم من خلقه، وكذلك الأنبياء عليهم السلام، اصطفاهم الله وخصّهم بالعلم والحكمة ونحوهما.

(إن الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم يوفقهم الله) «التوفيق» تجمّع الأسباب وصيرورة بعضها وفق بعض لتحقق الأمر الحسن، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾[1].

(ويؤتيهم من مخزون علمه وحكمه ما لا يؤتيه غيرهم).

«مِن» إما ـ ابتدائية نشوية ـ فالمعنى: يؤتيهم الله ما لا يؤتي غيرهم، ومنشأ ذلك علم الله وتقديره، فهو لعلمه بالأصلح وتقديره وقضائه آتاهم ما لم يعطه لغيرهم.

(١) سورة هود: الآية ٨٨.

فَيَكُونُ عِلْمُهُمْ فَوْقَ عِلْمِ أَهْلِ الزَّمَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ......

وإما تبعيضية فتكون «من مخزون علمه وحكمه» مفعول، أي يعطيهم الله بعضاً من علمه المخزون وحكمه.

و«حكمه» على الأول بمعنى التقدير والقضاء، وعلى الثاني بمعنى الحكمة أو بمعنى الولاية كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١).

و«المخزون» أي المحفوظ عنده لم يطلع عليه إلَّا من يشاء الله تعالى.

(فيكون علمهم فوق علم أهل الزمان).

(**في قوله تعالى**) أي هذا المطلب ـ وهو أنهم فوق أهل زمانهم علماً وحكمة ـ مذكور في هذه الآيات:

والآية الأولى: في العلم، لأن الهداية لا تكون إلَّا من العالم بالرشد من الغي.

والثانية: في الحكمة، وأنها عطاء من الله تعالى لهم عليهم السلام.

والثالثة: للدلالة على أنّ الله يصطفي الأفضل، ولا شك أن مَن له العلم والحكمة هو أفضل من غيره، فيكون أحقّ بالاصطفاء.

والرابعة: في فضل الله تعالى على الرسول صلى الله عليه وآله وإنزال العلم والحكمة عليه.

(١) سورة يوسف: الآية ٢٢.

﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥] ....

والخامسة: في فضله تعالى على الإمام علي والأئمة عليهم السلام.

١ ـ أما الآية الأولى فقد قال العلامة المجلسي رضوان الله عليه: الآية صريحة في أن المتبوع يجب أن يكون أعلم من التابع، وأنه لا بد أن يكون الإمام غير محتاج إلى الرعية في علمه، ولا ريب أن غير أمير المؤمنين عليه السلام من الصحابة لم يكونوا كذلك(١).

﴿قُلْ هَلْ﴾ استفهام إنكاري ﴿مِن شُرَكَآئِكُم﴾ كالأصنام ﴿مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ﴾؟ وحيث يعجزون عن الجواب ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّۗ﴾، ثم بيّن الله تعالى القاعدة العقلية العامة ـ التي يعرفها كل إنسان بفطرته ـ (﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ﴾) أولى (﴿أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾) أي لا يهتدي (﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ﴾) أي بأن يهديه غيره، فالعالم الذي يرشد إلى الحق أولى بالاتباع أم الجاهل الذي يحتاج إلى الهداية؟ (﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾) حكماً خلاف عقولكم؟

و«يَهِدّي» من اهتدى يهتدي من باب الافتعال، قُلبت التاء دالاً للتخفيف ـ جوازاً ـ وأُدغمت الدالان، ثم حرّكت الهاء دفعاً لالتقاء الساكنين، وفي الفعل الماضي استغني عن همزة الوصل ـ لحركة الهاء ـ فقيل: هِدّى يَهِدّي.

---

(١) مرآة العقول ج٢، ص ٣٩٦.

وَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] **وَقَوْلِهِ فِي طَالُوتَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾ ....**

---

٢ ـ (و) في (قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾)[1]، ولعلّ وجه الاستدلال أن الذي آتاه الله الحكمة هو فوق أهل زمانه.

فالآية السابقة حول أنهم فوق أهل زمانهم من جهة العلم، وهذه الآية حول أنهم فوق أهل زمانهم حكمةً.

٣ ـ (وَ) في (قَوْلِهِ فِي طَالُوتَ): ﴿وَقَالَ لَهُمْ﴾ للملأ من بني اسرائيل بعد موسى ﴿نَبِيُّهُمْ﴾ اشموئيل ـ بالعبرية وإسماعيل بالعربية ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ﴾ أي عيّن عليكم ﴿طَالُوتَ﴾ من ذرية «ابن يامين» ﴿مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لأنّا أسباط النبوّة والمملكة، فقد كانت النبوّة في ذريّة لاوي بن يعقوب، والمُلك في ذرية يهوذا بن يعقوب، ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ فهو فقير والمملكة بحاجة إلى مال، ﴿قَالَ﴾ أشموئيل (﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾) وهذا جواب تعبّدي، أي عليكم أن تقبلوا بما اختاره الله أيّاً كان، وهنا جواب آخر وهو جواب تعليلي ـ لبيان علّة اصطفائه دونهم ـ وهو: أن الله (﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾) أي سعة (﴿فِى ٱلْعِلْمِ﴾) والمَلِك يحتاج إلى علم

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٤٧]. وَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ

ليتمكن من إدارة المملكة، (﴿وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾) لتكون له هيبة وشجاعة، وهذان ـ سعة العلم والجسم ـ من مقومات المُلك، لا المال، فإنهما يأتيان بالمال وليس العكس، (﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾) فليس كونه من ذريّة ابن يامين نقصاً، إذ كما أتى الله المُلك في سبط يهوذا وأتى النبوّة في سبط لاوي، كذلك يؤتي المُلك حالاً في سبط ابن يامين (﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾) عطاءً، فيهب المُلك لمن يشاء ويغني الفقير (﴿عَلِيمٞ﴾) بمصالح العباد فلا يأمر بشيء اعتباطاً بل عن علم وحكمة.

في المرآة: فدلّت الآية على أن الاصطفاء وإيتاء المُلك الحق إنما يكون من الله وتعيينه، وأنّ مناط الاصطفاء شيئان: العلم والجسم، ومعلوم أن الجسم غير مقصود بنفسه، بل لكونه ملزوماً للشجاعة والمهابة عند العدوّ، فدلّت على أن الإمام لا بدّ أن يكون أعلم وأشجع من جميع الأمة، ولا ريب أن كلّاً من أئمتنا عليهم السلام كانوا أعلم وأشجع ممن كان في زمانهم من المدّعين للخلافة[1].

٤ ـ (**وقال لنبيّه** ﷺ) كيف يحاولون إضلالك يا رسول الله، والحال أنه (﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾) فتعلم أحكام الشرع

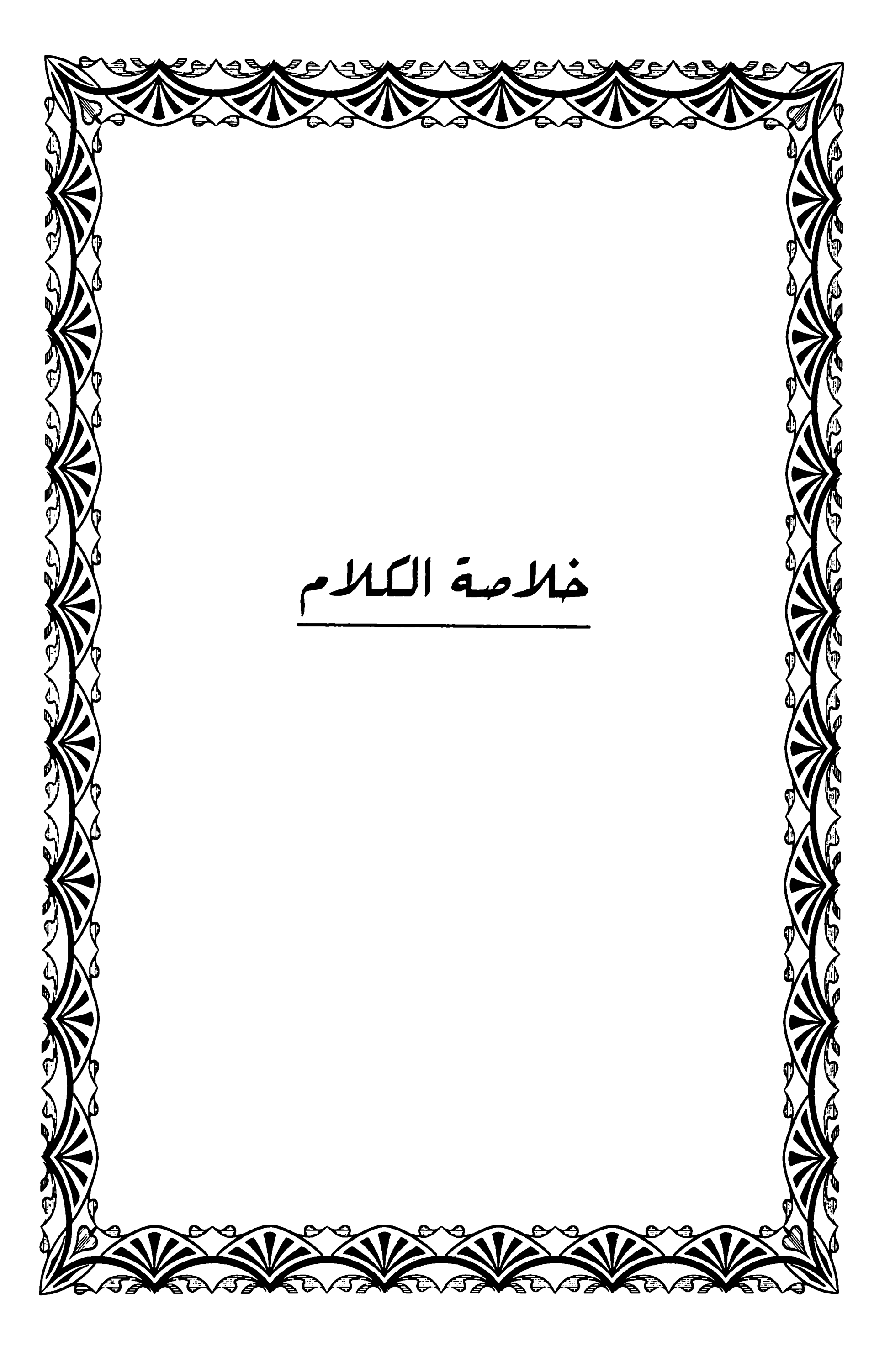
---

(١) مرآة العقول ج٢، ص ٣٩٨.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] **وَقَالَ فِي الْأَئِمَّةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ وَعِتْرَتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ** ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٤ ـ ٥٥].

كاملاً، (﴿وَعَلَّمَكَ﴾) من أحوال الناس وأمورهم (﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ﴾) لولا تعليمه تعالى إيّاك، (﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾)، فإنك تعلم الأحكام، وتعلم القضايا الخارجية، فحفظك الله من أن تخدع وتضلّ.

٥ ـ **(وقال في الأئمة من أهل بيت نبيّه وعترته وذرّيته صلوات الله عليهم:** ﴿أَمْ﴾) منقطعة ـ بمعنى بل ـ، (﴿يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾) محمداً وآله عليه وعليهم الصلاة والسلام، فهم أظهر مصاديق الآية (﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ﴾) النبوّة في محمد ﷺ والإمامة في علي وذريته عليهم السلام، فما وجه الحسد؟ مع أن بيت محمد ﷺ وعلي عليه السلام هو بيت النبوّة والمُلك (﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾) أي ابراهيم وآله عليهم السلام (﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾) أي الكتب السماوية (﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾) أي علم الشريعة (﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾) أي سلطة دينية ودنيوية (﴿فَمِنْهُم﴾) من أهل الكتاب أو عامة الناس (﴿مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾) بإبراهيم أو بمحمد ﷺ (﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ﴾) عن إبراهيم أو محمد أو عن الإيمان به (﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾) ناراً مشتعلة، فلا يضرّ صدّهم عنه، بل سيلاقون أشدّ المجازاة.



خلاصة الكلام

وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اخْتَارَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأُمُورِ عِبَادِهِ،

ثم إن الإمام الرضا عليه السلام لخّص ما ذكره، وأكّد أن الإمام:

١ ـ اختيار من الله تعالى.

٢ ـ أن الله يصطفيه ويتفضّل عليه بالعلم والحكمة والعصمة. . . الخ.

٣ ـ أن هذا الفضل لا يمكن لأحد أن يكسبه، ولا أحد مما يختاره الناس ـ دون إرادة الله تعالى ـ يتحلّى بهذه الأوصاف.

٤ ـ أنهم بتركهم ما اختاره الله، قد ضلّوا ونبذوا الكتاب، وأنه تعالى غضب عليهم.

(وإن العبد) تأكيد على أن الائمة عليهم السلام عبيد الله تعالى، وكل ما لهم فهو من فضله عليهم.

(إذا اختاره الله عزّ وجل لأمور عباده) أمورهم الدينية بتبليغ الأحكام وبيانها، والدنيوية بالحكم عليهم، فإنّ الإمامة رئاسة في الدّين والدنيا.

شَرَحَ صَدْرَهُ لِذَلِكَ، وَأَوْدَعَ قَلْبَهُ يَنَابِيعَ الْحِكْمَةِ، وَأَلْهَمَهُ الْعِلْمَ إِلْهَاماً، فَلَمْ يَعْيَ بَعْدَهُ بِجَوَابٍ، وَلَا يُحَيَّرُ فِيهِ عَنِ الصَّوَابِ، فَهُوَ مَعْصُومٌ مُؤَيَّدٌ، مُوَفَّقٌ مُسَدَّدٌ، قَدْ أَمِنَ مِنَ الْخَطَايَا وَالزَّلَلِ وَالْعِثَارِ، يَخُصُّهُ اللَّهُ بِذَلِكَ ....

(**شرح صدره**) أي جعل له القابلية (**لذلك**) أي لأمور عباده، فإنّ كثيراً من العلم لا يتحملّه الناس، وكثير من القضايا تصعب عليهم، (**وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً**) «الإلهام» الإلقاء في الروع.

(**فلم يعي**) «العَيّ»: العجز، (**بعده**) بعد الشرح والإيداع والإلهام، أو بعد الاختيار، (**بجواب، ولا يحير فيه**) أي لا يتحيّر في الجواب (**عن الصواب**).

(**فهو معصوم مؤيّد**) «التأييد» بمعنى التقوية.

(**موفّق مسدّد**) «التسديد» الاستقامة، وهو في الأصل بمعنى ما يُسدُّ به الثغر.

(**قد أمن من الخطايا**): الذنوب، و(**الزلل**): الذنب من غير قصد، (**والعثار**): الخطأ، فهو معصوم من تعمّد الذنب، ومن الخطأ في الذنب، ومن الخطأ في سائر الأمور.

(**يخصه الله بذلك**) أي بالعصمة والتأييد... الخ، وإنما يخصّه بذلك لجهتين:

لِيَكُونَ حُجَّتَهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَشَاهِدَهُ عَلَى خَلْقِهِ وَ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. فَهَلْ يَقْدِرُونَ عَلَى مِثْلِ هَذَا فَيَخْتَارُونَهُ أَوْ يَكُونُ مُخْتَارُهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَيُقَدِّمُونَهُ،

الأولى: (ليكون حجّته على عباده) أي: إنه الحجّة على العباد، يقتدون ويتأسون به، وكيف يمكن التأسي بمن يُذنب، أو الاقتداء بمن يُخطىء؟

الثانية: وليكون **(شاهده على خلقه)** أي: إنه شاهد على الخلق كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[1]، ولا بد من أمن الشاهد عن الخطأ، وإلّا أمكن ردّ شهادته، أو الاحتجاج بأنه يُخطىء فكيف تقبل شهادته، مع أنه لله الحجّة البالغة.

(و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾).

(فهل يقدرون على مثل هذا) أي هل يمكنهم أن يوجدوا في أنفسهم العصمة والتأييد... الخ، ليستحقوا الإمامة، والاستفهام إنكاري، أي لا يقدرون على ذلك **(فيختارونه)** أي فيختارون من أوجد هذه الصفات في نفسه.

(أم يكون مختارهم بهذه الصفة فيقدمونه) أي وهل يتعدد من توجد فيه هذه الصفات حتى يتركوا من اختاره الله الى ذلك الشخص؟

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

تَعَدَّوْا ـ وَبَيْتِ اللَّهِ ـ الْحَقَّ وَنَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَفِي كِتَابِ اللَّهِ الْهُدَى وَالشِّفَاءُ فَنَبَذُوهُ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، فَذَمَّهُمُ اللَّهُ وَمَقَّتَهُمْ وَأَتْعَسَهُمْ فَقَالَ جَلَّ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ....

(**تعدّوا ـ وبيت الله ـ الحق**) أي تجاوزوا عن الحق إلى الباطل، «وبيت الله» قسماً بالكعبة.

(**ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون**) تضمين لقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، والنبذ وراء الظهر كناية على عدم الاعتناء.

(و) الحال أن (**في كتاب الله الهدى والشفاء**) كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[2]. (**فَنَبَذُوهُ**) تركوا كتاب الله (**وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، فذمهم**) «الذم»: اللوم، و(**مقتهم**) «المقت»: البغض الشديد، (**وأتعسهم**) «التعس»: الانحطاط والهلاك، وفي المفردات: أن لا ينتعش من العزة وأن ينكسر في سفال[3].

(**فقال جلّ تعالى**): ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ (﴿وَمَنْ﴾) استفهام إنكاري (﴿أَضَلُّ﴾) أكثر ضلالاً (﴿مِمَّنِ

---

(١) سورة البقرة: الآية ٩٩.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٤.

(٣) المفردات ص١٦٦.

ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]. **وقال** ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٨] **وقال** ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ ....

ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾) قيل التقييد بقوله: بغير هدى، لأن هوى النفس قد يوافق الحق (﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾) الذين ظلموا أنفسهم بالعناد واتّباع الهوى، فلم تكن لهم القابلية للهداية ـ بسوء اختيارهم ـ.

(وقال) الله: (﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾) في الدنيا، وهذا دعاء عليهم بالانحطاط والهلاك، (﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾) أي ضيّع أعمالهم الصالحة، لأنها تُحبط ولا فائدة فيها، أو بمعنى الدعاء عليهم بأن لا يصلوا إلى مقصودهم من أعمالهم، وهؤلاء وإن كانوا يصلون إلى بعض أهدافهم في الدنيا، لكن لا يصلون إلى مرادهم الأصلي، وأما في الآخرة فيتحوّل عملهم إلى هباء منثور.

(وقال) تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ﴾ أسرف على نفسه بأن تعدّى بها عن الطريق الوسط ﴿مُّرۡتَابٌ﴾ شاك في دينه، ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ﴾ دفع وإبطال ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أدلته وأحكامه ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾ بغير حجة جاءتهم في دفع الآيات، بل عناداً، (﴿كَبُرَ﴾) عملهم (﴿مَقۡتًا﴾) وغضباً (﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾) فإن الله يمقتهم مقتاً شديداً (﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ﴾) هكذا (﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ﴾) ومعنى الطبع: كونه مطبوعاً ومختوماً ـ بسوء تصرفه وعناده ـ على الكفر،

عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً.

(﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾) عن قبول الحق (﴿جَبَّارٍ﴾) يجبر الناس ويظلمهم[١].

(وصلّى الله على النبي محمّد وآله وسلّم تسليماً كثيراً)

سبحان ربّك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

وكان الفراغ من توضيح هذا الحديث الشريف
في ليلة الجمعة الأول من شهر جمادى الاولى
سنة ١٤٣١ في بلدة قم المقدسة

---

(١) عن تبيين القرآن ص٤٨٤.

الفهرس